# الفصل العاشر

## المسيحية الشعبية في القرنين ٢-٣ م

في القرن الميلادي الثاني، وعلى امتداد حياة الإمبراطورية الرومانية في طورها الأخير كله، حدثت نقلات نوعية مهمة في الوعي الاجتماعي، لا سيما في الأوساط الجماهيرية. وإذا كان المثقفون قد واصلوا في الطور المذكور، فهم العالم في إطار العقلانية القديمة (أي عقلانية العصر الإغريقي الروماني)، والفلسفة القديمة، فإن ذلك الطور عينه كان بالنسبة للناس العاديين زمن الرعب اللاعقلاني المتنامي. وقد شغلت قوى الشر الغيبية: الساحرات، والعفاريت، مكانة أساسية في هذا الفهم الجديد للكون، بصفتها قوى شريرة فاعلة ينبغي على الإنسان أن يقاومها مقاومة متواصلة، وأيضاً بعون من قوى خارجية ذات قدرات خارقة. وهكذا خيم الإحساس بالمعركة غير المرئية فوق حياة الناس الدينية والفكرية، وانسحب هذا في غضون ذلك على الوثنيين والمسيحيين على حد سواء. فالعفاريت باتت مسؤولة عن الرزايا كلها، سواء الفردية أو الاجتماعية: شح المحاصيل، والأمراض، وحتى فشل الحياة العاطفية. وقد حاول الوثنيون تفادي أذى العفاريت باللجوء إلى السحر، والتعاويذ، وطلب العون من شتى الآلهة. فانتشرت في مصر عبادة هرمس المثلث العظمة: توجهوا إليه بتعاويذ: «.. فليبتعد عني كل روح، وكل عفريت، وكل لقاء رديء، وكل قوة من قوى الشر» (بردية ليدن). ووصلت إلينا بردية سحرية تحمل رسم عفريت مخيف بغير رأس، جسده مغطى كله بالكتابة السحرية. وقد حاول المؤلفون القدماء تقديم صورة هزلية لذلك الخوف كله، كما فعل على سبيل المثال، أبوليوس في القصة التي أدخلت إلى مؤلف «الحمار الذهبي»، وهي قصة الساحرات التساليات اللواتي

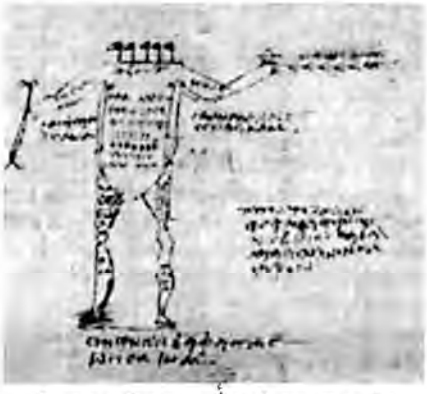

عفريت من غير رأس. بردية سحرية.

اجتمعن لكي يقطعن أنف الميت وأذنيه، لكنهنّ بدلاً من ذلك قطعن هذه الأعضاء لدى الشخص الذي كان يحرس المتوفى. ووصف لوقيانوس بكثير من السخرية ساحرة تستخدم الكبريت، وترمي الملح في النار، وتدور المغزال وهي تنطق في أثناء ذلك بأسماء رهيبة بربرية (أسماء أرواح؟) ولكن السخرية لم تجد نفعاً..

فما الذي كان يقف خلف انتشار موجة الخوف تلك؟ غني عن البيان القول، إن الإمبراطورية الرومانية كانت تعيش عند نهاية القرن الميلادي الثاني أزمة عميقة، فالبرابرة اجتاحوا مقاطعاتها الغربية، وقادتها العسكريون كانوا يتصارعون على السلطة. كما كان العالم القديم يعاني حرباً بين قادة جيوش الإسكندر المقدوني، ليست أقل رعباً بالنسبة للإغريق. لقد دمرت الحرب الأهلية الرومانية المقاطعات الشرقية، فتزايد تعظيم الديانات الشرقية. وكان هذا كله يجري في إطار الفهم التقليدي للنظام الكوني بصفته كلاً موحداً منظماً، وكانت الاتحادات الدينية الخاصة تضع مواثيقها، والمدن تعتنق على أساس قرارات مجالسها الشعبية، أكثر الديانات شعبية.

ونحن نرى أن مصدر القلق والخوف قد تمثل في المقام الأول، بانحلال العلاقات الجماعية التقليدية في الإمبراطورية المترامية الأطراف، بما فيها العلاقات العائلية والمدنية. فنظام دولة المدينة استهلك تاريخياً وتحولت المدن إلى مجرد مدن عادية تعيش فيها كثرة من السكان الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة: لقد أظهر تحليل شواهد القبور في آسيا الصغرى إبان القرنين ٢-٣م، أن كثرة من الشواهد قد أُقيمت خاصة في المدن الكبرى (وصل إلينا ثلثها)، وقد أقامها أصحابها «لأنفسهم وهم بعد على قيد الحياة»، أي، لم يكن هؤلاء يعتمدون على أن أحداً ما سوف يؤدي لهم واجب الدفن. إذن لم يعد الفرد ينظر إلى الكون بصفته معطى منظماً. لقد بقي الإنسان وحيداً مع إلهه وجها لوجه، ولم ير دوماً أنه ند له، لقد بقي الإنسان وحيداً في مواجهة رزاياه كلها، وكان من السهل بالنسبة له ألا يرى أسبابها في سوء سلوكه هو نفسه، إنما في دسائس قوى الشر الغيبية. ومن المعروف أن إلقاء الذنب على العالم الخارجي. هو الحالة السيكولوجية النموذجية بالنسبة للوعي الجماهيري، بيد أن هذه الحالة تخلق بالضرورة الخوف الشديد أمام هذا «الخارجي».

وقد سيطر هذا المزاج حتى على الجماهير الشعبية التي اعتنقت المسيحية. فقد قام في مسيحية القرن الميلادي الثاني وضع إيديولوجي شديد التعقيد إلى درجة كبيرة: من جهة ظهرت مؤلفات الفلاسفة المسيحيين الناصريين الذين جمعوا كثيراً من معطيات التعاليم القديمة، وصاغوا مسائل لاهوتية معقدة، ومن جهة أخرى اندفع إلى المسيحية سيل من

المعتنقين الجدد الذين جاؤوا من العالم الوثني وكانوا ينتمون إلى شتى الأعراق ومختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، ولم تكن لهؤلاء أي صلة بمثل هذه المسائل. وحمل هؤلاء معهم إلى المسيحية إيمانهم بقوة الطقوس السحرية، والشعوذة، وكثرة كثيرة من العفاريت الذين يؤثرون في العالم المحيط. ونحن إذا عدنا إلى الكتابات المسيحية المنحولة التي ظهرت في القرون ٢-٤م، لوجدنا أنها مليئة بوصف مختلف ضروب المعجزات المستحيلة التي صنعها المسيح، وماريا، والرسل. بيد أنه إلى جانب الإيمان بالقدرة العجيبة اللا متناهية التي كان يملكها القديسون، كانت تتشكّل تصورات عن جبروت قوى الشر.

فتداخلت في المسيحية نفسها الآن معتقدات الوثنيين بالعفاريت مع المعتقدات التي ورثتها المسيحية عن اليهودية، «بأمير الظلام»: الشيطان خصم الإله.

ولم يعد مسيحيو القرن الميلادي الثاني وما بعده مجرد جماعة صغيرة من المؤمنين الذين يرون في أنفسهم قلة مصطفاة تعيش خارج المجتمع. فقد باتوا الآن يعيشون وفق قوانين هذا المجتمع، وثمة منهم من أثرى، وارتكب الآثام من وجهة نظر موعظة الجبل، بل ثمة منهم من ارتد عن الدين في أزمنة الاضطهاد. ولذلك كانت مسألة الذنب والعقاب التي طرحها إنجيل الطفولة وكذلك مسألة تحديد درجة المسؤولية الشخصية من أكثر المسائل أهمية وحدة.

ومن المعروف أن المخاطر التي يصنعها الشيطان، كانت في وعي سكان أوروبا إبان القرون الوسطى أكثر بكثير من فرص الخلاص الضئيلة، ولذلك غلب الخوف حسب قول لي غوث، على الأمل. بيد أن معادلة الإنسان - الشيطان كانت عولجت في مسيحية ما قبل مجمع نيقيا، وقبل كل شيء في المنحولات، إذ أعطت هذه اهتماماً كبيراً لدور الشيطان وأتباعه العفاريت بصفتهم أعداء الإنسان.

لقد جاءت شخصية الشيطان غير محددة المعالم في النص التوراتي، فهو يظهر في سفر أيوب محرضاً يهوه على اختبار إيمان الصدّيق، وهو يدخل في أثناء ذلك على الإله مع أبناء هذا الأخير من غير أي عائق، كما يجيز له يهوه أن يفعل بأيوب ما يشاء ولكن شريطة ألا يؤذيه هو نفسه (أيوب): حسب أفيرينتسيف س. س أن الشيطان لا يظهر في هذا السياق عدواً ليهوه، بل مدعياً ضد الإنسان. إنه شخصية ما تشبه «المدعي العام الكوني». ولكنه في سفر آخر يحرّض داود على إجراء إحصاء سكاني، وهو ما لم يكن يهوه راضياً عنه (أخبار الأيام الأول)؛ كما ورد ذكر الشيطان كذلك في سفر زكريا، حيث يظهر هنا واقفاً إلى جانب ملاك الرب مع رئيس الكهنة، وهو يستعد على ما يبدو لتوجيه الاتهام إلى هذا الأخير، لكن الإله يهوه يمنعه. ولم يجر تشكيل شخصية الشيطان بصفته مغوياً للإنسان إلا في الكتابات

اليهودية المتأخرة (كتاب حكمة سليمان، على سبيل المثال، إذ يظهر الشيطان هنا مندغماً بالحيّة التي أغوت حواء).

ولم يشغل الشيطان مكانة ذات أهمية تذكر في تعاليم يسوع، كما قدمتها الأناجيل القانونية، لأن الخلاص مرهون هنا بالإيمان وسلوك الفرد نفسه، بنبذه لما هو دنيوي والتزامه بتعاليم موعظة الجبل. أما اختبار الشيطان ليسوع في البرية، فيبدو هنا كأنه حدث جرى بإرادة علوية، لأن الروح القدس هو الذي أصعده إلى البرية. وربما كان الحديث يجري عن الأمر نفسه في واحد من أناجيل اليهود - المسيحيين المبكرة، وهو الإنجيل المدعو إنجيل اليهود. ونحن كنا أشرنا سابقاً إلى أن يسوع كان بالنسبة لبعض المجموعات اليهودية - المسيحية شخصاً صالحاً حل عليه الروح القدس أثناء معموديته وأعلنه ابناً له. وربما كان هؤلاء قد رأوا أنه من الطبيعي أن يؤكد يسوع المسيا حقيقته هذه عبر تجاوزه تجربة الغواية.

ومن ناحية أخرى يظهر الشيطان في العهد الجديد بصفته قوة كونية ما، أمير هذا العالم (في النص الإغريقي: «سلطان هذا الكون»، يوحنا). ولكن ظهور يسوع أعلن نهاية هذا العالم وسيده: يقول يسوع في إنجيل لوقا: «لقد رأيت الشيطان منحدراً من السماء كما الصاعقة»، وما يثير الاهتمام أن الشيطان حسب تصور مؤلف هذا الإنجيل، كما حسب تصور مؤلف إنجيل أيوب أيضاً، يمكن أن يكون موجوداً في السماء.

وجاءت المعركة مع «أمير الظلام» جلية بأكثر ما يكون الجلاء، في رؤيا يوحنا حيث يتخذ هذا فيها هيئة التنين الأحمر: لقد دارت رحى هذه المعركة في السماء، وانتهت بإلقاء الشيطان وقواته من السماء إلى الأرض. ويدعى الشيطان في النص المذكور مغوي المعمورة إلى الضلال، والمدعي ضد البشر، وفق التصورات التوراتية، أمام الإله. وبعد أن قذف به من السماء، يتابع التنين معركته على الأرض. وثمة في الرسالة إلى الأفَسُسيين دعوة إلى عدم الانقياد لمكر الشيطان، وضرورة مناهضة سلاطينه، وولاة عالم الظلام[1]، وأرواح الشر السماوية. وعلى هذا النحو رأوا في الصراع ضد الشيطان مواجهة كونية يضع مجيء يسوع نهايتها. وفي تعداد هذه الرسالة للأرواح الشريرة. لا يظهر الشيطان كبيرها، بل واحداً منها وحسب، وهذا ما يجيز لنا أن نظن بأن تراتبية هذه الأرواح لم تكن قد شاعت بعد. وقد ورد مفهوم الشيطان بصفته نقيضاً (ليسوع)، في أعمال المسيحيين الأوائل أيضاً.

---

١- ربما يكون الاعتقاد بأرباب الظلام قد جاء من تعاليم طائفة قمران عن الروحين الضدين اللذين خلقهما الإله: أمير النور، وملاك الظلام الذي تتركز بين يديه كل السلطة على ابناء الباطل حتى نهاية العالم (نصوص قمران سانت - بطرسبورغ، ١٩٩٦. ميثاق الطائفة، ٣ ص ١١٦).

وإلى جانب فهمهم للشيطان بصفته قوة كونية تشن حرباً متواصلة ضد الإله، عرفت المسيحية المبكرة فهماً آخر له فهو الدافع المحرض الذي يقف خلف كلّ تصرفات الناس السيئة ومقاصدهم الشرير، وهو رئيس عصابة كبيرة من الأبالسة (العفاريت). ولا يعطي إنجيل العهد الجديد حلاً متماثلاً للإغواء: تقول رسالة يعقوب، إن الإله لا يغوي الإنسان (من الواضح أنه كان ثمة وجهة نظر تقول بهذا، وأن يعقوب يجادل ضدها)، «ولكن كل إنسان تغويه، وتفتنه، وتغرر به شهوة نفسه». ومعنى هذا أن مصدر الإثم كامن في داخل الإنسان. وبما أن يعقوب أرسل رسالته إلى اليهود في الشتات، فإنه من الجائز لنا أن نفترض أن المؤلف يعكس وجهة نظر أول جماعة من المؤمنين: اليهود - المسيحيين.

ولكن مصدر الإثم أخذ ينتقل شيئاً فشيئاً إلى الخارج، بالنسبة لوعي الكتلة الأساس من المؤمنين المسيحيين: لقد تحول الإثم إلى نتيجة للعمل الشيطاني الخبيث الذي يقوم به الشيطان والقوى التي تعمل بإمرته: كثرة من الأرواح الخبيثة والعفاريت، الذين يسكنون الإنسان. ومن المعروف أن أناجيل العهد الجديد قد أشارت إلى المسكونين بالأرواح الشريرة، الذين شفاهم يسوع منها: يذكر إنجيل متى «المسكونين» في سياق واحد مع المرضى، والبرص، والمصروعين. ولا يظهر هؤلاء الناس بصفتهم أفراداً شريرين، بل مرضى ومسلوبي العقل. أما الشياطين التي يجري طردها من المرضى، فإنها لا تجرؤ على مقاومة يسوع، بل تتوسل إليه أن يسكنها قطيعاً من الخنازير (متى): يبدو أن هؤلاء كانوا من صغار العفاريت، وليسوا من أدوات الشيطان، وعليه فقد رأوا في طردهم مجرد إبراء من مرض.

ولكن التصورات التي ظهرت بعد ذلك تحت تأثير المعتقدات الوثنية بوجود كثرة من الأرواح الشريرة الجبارة، وتأثير ديانات الشرق الثنوية، وإلى حد ما تحت تأثير التصورات المسيحية نفسها عن الشر، والإثم، والعقاب، هذا كله أفضى إلى ضرب من المبالغة في دور الشيطان وخدمه العفاريت الذين يسكنون الإنسان لكي يدفعوا به إلى الإتيان بأعمال حمقاء. وتبدو الثنوية بجلاء في رسالة برنابا المنحولة (وبرنابا، هو حسب أعمال الرسل، رفيق بولس الرسول)، التي كتبت في أوائل القرن ٢م: يتحدث كاتب الرسالة عن طريقين أمام الإنسان لا ثالث لهما، هما طريق الإله وطريق الشيطان (Barn. ١٨). وتتلقى صورة الشيطان نفسها هنا تلويناً، فطريقه طريق «سوداء».

وفي القرنين ٢-٣م عالج اللاهوتيون المسيحيون بدورهم مسألة الشيطان ودوره، ولكن تشكل التصورات الشعبية انعكس أول ما انعكس في الكتابات المنحولة التي كانت موجهة إلى الكتلة الأساسية من جماهير المؤمنين، ومع أن هذه الكتابات لن يعترف بها فيما

بعد، سوف تحظرها الكنيسة، إلا أنها سوف تؤدي دورها في المعتقدات التي ترسخت عميقاً لدى سكان الإمبراطورية. فهذه الكتابات لم تنقل فقط أكثر الخرافات خيالية، إنما تضمنت أيضاً مواعظ للمؤمنين، بما فيها تلك التي ترشدهم إلى تفادي مقاصد الشيطان. ويمثل أهمية في هذا السياق كتاب هيرما: «الراعي» (الذي يرجح أنه كتب في حوالي العام ١٠٢م). وخلافاً للبنية التعبيرية المعقدة التي جاءت فيها رؤيا يوحنا اللاهوتي، فإن صور كتاب «الراعي» وأمثاله جاءت موجهة إلى أناس ليسوا على درجة عالية من الثقافة، متعطشين إلى تلقي إجابات واضحة على الأسئلة التي تمضهم. ومن أهم المسائل التي طرحها «الراعي»، المسألة الأخلاقية، ومعايير السلوك المسيحي. وفي سياق هذه المسألة تبرز مسألة دور الشيطان، والأرواح الشريرة، وقدرة الإنسان الفرد على مواجهتهم.

وحسب الاستدلالات العقلية الواردة في الجزء الذي يدعى «الوصايا» من هذا المؤلف، أنه ثمة إلى جانب كل إنسان ملاكان، ملاك صالح، وملاك شرير. ويدخل هذا الأخير قلب الإنسان، فيملؤه بالحقد، والكمد، والطمع، والغطرسة، والشهوة و.. وفي غضون ذلك فإن الإيمان لا ينقذ من الملاك الشرير، لأنه يستطيع أن يدخل قلب المؤمن أيضاً، وعندئذٍ لا بد لهذا من أن يأثم. وعلى هذا النحو فإن كل هذه الأحاسيس الخبيثة والدوافع الرديئة تبدو كأنها ذات منشأ خارجي، أي على الضد مما كتبه مؤلف رسالة يعقوب. والحقيقة أنه يجب على المؤمنين أن يأخذوا بالحسبان مصدر مثل هذه المقاصد ويقاومونها. ويبدو أن إدراك كون الشيطان هو الذي يفرض السلوك الخبيث على الإنسان قد ساعد الناس على ألا يشعروا أنهم ملكؤون بالإثم حتى النهاية، وهذا ما خفف من وطأة الإحساس بالإثم وجعله مجرد حالة ضعف عجز الإنسان خلالها عن مقاومة الشيطان.

وفي مكان آخر من «الوصايا»، يناقش المؤلف بالتفصيل فكرة جبروت الشيطان. فقد حدّث هيرما المرشد الذي ظهر له (وقد دعا هذا نفسه «ملاك التوبة»)، عن أن الشيطان عنيد ويكرس قوته كلها ليناهض عبيد الإله. وتأتيه الإجابة: ليس الشيطان قوياً إلا أمام ضعيفي الإيمان، فهو يغوي المؤمنين، لكنه لا يستقر إلا فيمن إيمانه ناقص، فيتحول هؤلاء إلى عبيد له. ومن لا يلتزم بالوصايا يهلك نفسه بنفسه: يبدو كأنه تجري هنا محاولة للجمع بين فكرة التحريض الشيطاني والمسؤولية الشخصية للفرد عن سلوكه.

وحسب هذا المؤلف أن الشيطان هو المسؤول أيضاً عما يفعله الأنبياء الدجالون (في القرن ٢م كانت هذه المسألة من أكثر المسائل حدة في الأوساط المسيحية، إذ دار صراع مرير بين مختلف المجموعات المسيحية، وكان كل داعية من الدعاة الذين لا عد لهم. يتهم خصمه

بتحريف تعاليم المسيح الحقة): روحه تستقر فيهم، وفي غضون ذلك، علاوة إلى تنبؤاته الجوفاء يستطيع النبي الدجال أن يقول شيئاً ما صحيحاً، بعون من الشيطان، لكي يستميل المؤمنين إلى جانبه (الوصايا)، وبذا يعترف اعترافاً غير مباشر بغدر الروح الشرير وقوته.

أما باعث كل الاستدلالات العقلية في فكرة الشيطان، فهو إقناع الناس بألا يخافوا الشيطان، وقد ألح «الراعي» على هذا السعي إلحاحاً كبيراً («لا يستطيع الشيطان أن يستقر في عبيد الإله الذين يؤمنون بالرب من كل قلوبهم»). وجاءت هذه المحاكمات بمثابة رد خاص على الإيمان الناشئ بالشيطان عدواً رئيساً للإنسان يدفعه إلى الارتداد عن دين المسيح، واستجابة ضد الخوف المتصاعد تجاه رأس أرواح الشر هذا.

ففي القرن الميلادي الثاني ظهر الشيطان بصفته الصورة الوحيدة للجبار الذي يرئس أرواح الشر كلها، فعلى هذا النحو بالذات كتب يوستين (المنافحة). لقد حاول المدافعون عن المسيحية لدى مواجهتهم مثل هذه العقائد، أن يوافقوا بين وجود الشيطان بصفته تجسيداً للشر، وبين وجود الإله بصفته الخالق الوحيد للعالم. ففي بحثه «ضد سيلس» كتب اوريجينوس يقول، إن العفاريت مخلوقات الإله أيضاً، لكن الإله لم يخلقهم عفاريت، بيد أنهم بصفتهم كائنات عاقلة، ابتعدوا عن الصلاح بإرادتهم. ورأى ترتوليان بدوره، أن الشيطان الذي خلق منذ الأزل صالحاً، لم يبق على ما كان عليه من صلاح، فاستهتر بإرادته، وزرع الآثام، وصار إلى المذنب في الشرور كلها.

لقد أخذ الإيمان بالعفاريت يتنامى في أوساط الجماهير المسيحية وحاول مختلف المؤلفين أن يشرح دوافع عدوانية العفاريت تجاه الناس. وجاء التفسير الأقرب إلى مستوى الوعي العادي البسيط، لدى مينوسيوس فيليكس في حواره: «اوكتافيوس»، حيث ساق المؤلف في حواره هذا تعليلاً لسعي العفاريت إلى رد الناس عن الإيمان الحق. وحسب المؤلف أنه ثمة أرواح خبيثة كاذبة سقطت من النقاء السماوي. لكنها فقدت هذا النقاء ودنست نفسها بالعيوب، ولكي تخفف من وطأة التعاسة التي تعاني منها، لا تنفك تدفع الآخرين إلى الهلاك، ويدفعها ابتعادها عن الإله إلى دفع الآخرين إلى الابتعاد عنه. وهكذا يرى فيليكس أن ما يدفع العفاريت إلى سلوكها العدواني، هو دافع ما يشبه الحسد، فالسلوك البشري الأحمق الصرف يعزّيها، لأنها لا تريد أن ترى أنها وحدها الخاسرة. من الواضح تماماً أن هذا التفسير يعكس التصورات «الدنيا» عن الدوافع التي تكمن وراء كثير من التصرفات السيئة؛ فلا يظهر العفاريت هنا بصفتهم «ولاة الظلام» بقدر كونهم كائنات شريرة صغيرة. ووفق حوار «أوكتافيوس» هذا، أن العفاريت تساعد السحرة على صنع «ما يشبه المعجزات» وتشهد هذه

الكلمات الأخيرة على أن العفاريت لا تكتفي بإغواء المؤمنين، إنما تمد يد العون إلى مختلف ضروب المشعوذين والسحرة أيضاً.

وفي أواخر العصر القديم أخذ الشيطان والعفاريت يؤدون دوراً متزايداً. فهم المحرضون على كل عمل شرير يأتيه مسيحي، أو وثني، أو يهودي. وقد زعم الشيطان في إنجيل نيقوديموس الذي لم يوضع قبل القرن الميلادي الثالث، أنه هو الذي وسوس لليهود لكي يصلبوا يسوع، مع أن هذا الزعم لم يكن يتوافق مع رواية الأناجيل القديمة، ولا مع النظرية اللاهوتية التي حملتها. ففي أعمال الرسل أن الذين كانوا يضطهدون هؤلاء هم أشخاص تحركهم دوافع واقعية واضحة تمام الوضوح: اليهود الغايورون وحرفيو مدينة أفَسُس الذين أثارت سخطهم مواعظ بولس التي هاجم فيها آلهة الوثنية (بخاصة الإلهة أرطميس)، ولم تكن الدواعي الدينية هي التي تحرك هؤلاء، إنما خشيتهم من أن تتقلص أعداد الزبائن الذين يشترون المجسمات الفضية التي كان يصنعها هؤلاء لمعبد الإلهة. ولذلك تقدم هؤلاء بشكوى إلى السلطات المحلية التي اختلفت مواقفها كما أشرنا سابقاً: في مدينة فيليبوس أمروا بجلد بولس ومرافقيه بالعصي (أعمال الرسل)، أما نائب القنصل غاليون، فقد رفض محاكمة بولس معلناً أنه لا يريد أن يكون حكماً بين المسيحيين واليهود (المصدر نفسه)، وفي أفَسُس لم تكن مواعظ المسيحيين هي التي أقلقت السلطات، بل الحشود الضخمة التي تجمعت في المسرح لتعبر عن رفضها لتلك المواعظ (المصدر نفسه). وليس للعفاريت أو الملائكة أي حضور في هذه القصص التي من المؤكد أنها وقعت فعلاً. بيد أن صحة وقوع الحدث وحدها لم تكن كافية بالنسبة لمخيلة مسيحيي الحقبة المعنية. وحسب س. س أفيرينتسيف أن مثل هذه المنحولات حملت قدراً كبيراً من استقلالية الخيال الروائي، ومهدت سبيل أكثر المشاهد شذوذاً، ولا أخلاقية، وهو ما يناقض أسلوب المسيحية. فعندما كان الحديث يجري عن العفاريت، لم يقتصر الأمر على خيال مؤلفي تلك القصص: لقد كان المسيحيون الذين عايشوا حملات الاضطهاد في القرن ٣م، وعانوا أزمة حادة عاشتها الإمبراطورية كلها وقتئذٍ، كانوا يريدون أن يصدقوا أن أتباع الشيطان وشركائه، هم المذنبون في كل تلك الشرور، وأن التغلب عليهم بالمعجزات التي تصنع باسم يسوع، أمر ممكن. وكان سيلس خصم المسيحية، قد تحدث عن كثرة من أسماء العفاريت التي وردت في كتابات المسيحيين، وعن شتى ضروب التعاويذ التي كانت تستخدم ضدها، وطقوس التطهر منها، والحجب وما شابه (أوريجينوس، ضد سيلس). والعفاريت تحديداً، هي التي ظهرت بكثرة في التعاويذ السحرية عند الغنوصيين، لكن كلمات سيلس تنسحب على المجموعات المسيحية كلها تقريباً، وفي

سياق الإيمان بالعفاريت كانت المواقف تتبدل تجاه صور آلهة الوثنية، أصنامهم: كان يبعث من جديد تصور قديم[1] بات شبه مستأصل في العصر الإغريقي - الروماني، مؤدّاه أن الأصنام هي مسكن الآلهة. وثمة في كتاب العهد القديم موقف حاد معاد لأصنام آلهة الوثنية: دعيت هذه الأصنام في سفر أرميا بالأعمدة المصقولة العاجزة عن الكلام والحركة، ولذلك تحمل حملاً (أرميا). كما دعا النبي اشعياء الأصنام بالأشياء التي لا نفع منها، فهي مصنوعة من بقايا الأشجار التي كانوا يحرقونها ليتدفؤوا بنارها. وفي النص التوراتي أمثلة أخرى كثيرة على هذا. ولم يكن موقف المسيحيين الأوائل من الأصنام مختلفاً عن موقف اليهود منها. فقد أكد بولس على أن الأصنام التي كان يتوسلها المسيحيون الجدد من قبل، هي أشياء صامتة لا حياة فيها (رسالة بولس الأولى إلى كورينثوس)؛ ويقول مؤلف الرسالة عينها في مكان آخر، إن الصنم لا يمثل في الكون أي شيء. وحسب أعمال الرسل أن بولس حاول في خطبه أن يقنع الأثينيين بأنه ينبغي على الإنسان ألا يظن أن الآلهة كالذهب، أو الفضة، أو الحجر الذي يمنحه الفن والإبداع البشري صورة بشرية (أعمال الرسل). وفي القرون الميلادية الأولى تبدل بدوره موقف سكان الإمبراطورية الرومانية غير المسيحيين، من التماثيل (في أقل تقدير، موقف الشريحة المثقفة): في رده على اتهام المسيحيين له بعبادة الأصنام، كتب سيلس يقول، إن الأغبياء وحدهم يمكن أن يروا في التماثيل آلهة، فهذه ليست سوى تصاويرهم (أوريجينوس، ضد سيلس).

ولكن المنحولات التي وضعت ابتداءً من القرن ٢م تفيد بأن المسيحيين أخذوا يرون في الآلهة الوثنية عفاريت، وفي الأصنام أمكنة إقامتها، وبفضل ذلك يمكن لتصاوير الآلهة أن تصنع المعجزات، وتنطق بالنبوءات، وتشفي المرضى (ولكن لغاية شريرة، هي إخضاع الناس لإرادتها): إن ما يحدث إذن، هو إحياء الإيمان بالقوة السحرية للتصاوير. وقد انعكست هذه التصورات عن الأصنام - العفاريت بجلاء ووضوح، في «آلام الرسول برثولماوس». فحسب هذا المنحول أن برثولماوس توجه إلى الهند لكي يعظ بالمسيحية، وكانت هذه البلاد تقع وفق تصوراتهم على أطراف الكون (لقد كانت هذه بلاداً أخرى غير تلك التي عمل فيها الرسول توما[2]، وربما كان المقصود بهذه الهند، شبه جزيرة العرب). وهنا دخل برثولماوس إلى معبد فيه صنم عشتروت، وقد كان يقيم هنا إقامة دائمة عفريت يشفي الناس من الأمراض،

١- بعد أن أخمد الفرس في العام ٥٠٠ق.م انتفاضة إغريق آسيا الصغرى، قرروا معاقبة ميلتوس زعيمة الانتفاضة بحرمانها من حماية الآلهة، فنقلوا تمثال إلهها الحارس أبوللون ومعبده إلى مكان اخر.

٢- لقد جاء في أول المنحول، إنه ثمة ثلاثة بلدان تدعى الهند: تلك التي تفضي إلى آثيوبيا، وتلك التي تفضي إلى ميديا، وتلك التي تقع بلاد الظلام على أحد جانبيها والمحيط على الجانب الأخر. وإلى هذه الأخيرة جاء برثولماوس.

ولكن من الأمراض التي يتسبب هو بها فقط. ولم يستطع العفريت أن يفعل أي شيء بحضور برثولماوس، وعندئذٍ سأل القائمون على الصنم الآخر بيريت عما حصل لمعبودهم. فأجابهم هذا قائلاً، إنه منذ دخول برثولماوس إلى المعبد، لم يعد بمقدور عشتروت أن ينطق بأي كلمة.

ومن الطريف أن الأصنام في هذه القصة، هي التي تتحدث (خلافاً للأصنام القديمة، إذ كان الكهنة أو المتنبئون هم الذين ينطقون باسمها): لم تعد بكماء. ومن ثم، بعد وصف عدد من المعجزات التي صنعها برثولماوس، يورد المنحول الحديث الذي دار بينه وبين العفريت الذي قيّده الرسول: لقد اعترف العفريت أن يعمل بإرادة ربه الشيطان، فهذا يرسل العفاريت التي تخدمه طائعة، إلى الناس لكي تهلك الجسد أولاً، ثم الروح بعد ذلك. فأمر برثولماوس العفريت بأن يخرج من الصنم ويدمره بنفسه، فامتثل هذا للأمر وأطاح بباقي التصاوير التي كانت تزين المعبد. ويصف المنحول المظهر الخارجي للعفريت الذي خرج من الصنم وصفاً دقيقاً: لم يعد هذا مجرد روح مجرد، لقد تحولت التصورات عنه إلى «أشكال مادية»، فهو أكثر سواداً من السخام، له لحية طويلة، وجدائل شعره تصل حتى قدميه، عيناه تقدحان شرراً، ويطلق أنفه لهباً كبريتياً، وله علاوة إلى هذا كله جناحان شوكيان: لم تكن مخيلة الذين يؤمنون بوجود الأرواح الخبيثة تبخل بأي زخارف لصنع صورة مرعبة. ويعد هذا الوصف من أقدم المحاولات التي أعطت صورة الروح الخبيث وصفاً محدداً، ثم أخذت هذه الصورة تتأرجح حول ذاتها في الخرافات التي ظهرت فيما بعد. وانتهت الحكاية مع العفريت بظهور ملاك رمى به إلى الصحراء الخالية من البشر، وسوف يبقى هناك إلى يوم القيامة.

وتقف العفاريت في كل القصص المشابهة عاجزة تماماً أمام الرسل والملائكة، وبمعنى آخر، إن أحداً سوى الكائنات السماوية والذين يمتلكون قوة خاصة من البشر، لا يستطيع أن يواجه هؤلاء. أما الدوافع الذاتية لدى المؤمن العادي، أي ما تحدث عنه «راعي» هيرما في حينه، فلم تعد كافية في نظر مسيحيي الزمن المتأخر، لمواجهة قوى الشر: لقد غدا الخوف من الشيطان عظيماً جداً، وبات الإحساس بضعف الإمكانات الذاتية للإنسان أعظم.

وإذا كان الرسل هم، حسب المنحولات، الذين يواجهون العفاريت ففي القرن الميلادي الثاني أخذت الكنيسة على عاتقها مهمة طرد الأرواح الخبيثة. وقد أنشئت فيها وظيفة خاصة، هي «طارد»العفاريت: الإيغزورسيت. ويقول ترتوليان، إن طرد الأرواح الخبيثة كان يجري باسم المسيح: لدى النطق باسمه كانت العفاريت تصاب بحالة رعب وتفر هاربة من أجساد المرضى المسكونين (المنافحة)، ورأى ترتوليان في غضون ذلك أن رجال الاكليروس وحدهم القادرون على طرد الشيطان. وأدخلت إلى القواعد الطقوسية التي جاءت في وثيقة

«القواعد المصرية» التي نشرت في العام ١٩١٦م، صيغة نبذ الشيطان أثناء تأدية طقس المعمودية (لقد رأوا في كل وثني وليد الشيطان). لكن وظيفة الإيغزورسيت اختفت فيما بعد، إلا أن وعي المسيحيين حافظ على حالة الخوف من العفاريت وضرورة السعي إلى طردهم.

وبالتزامن مع مسألة مصدر الآثام، ظهرت أمام المؤمنين مسألة عقاب الآثمين. ففي «راعي» هيرما، ليس الشيطان هو الذي ينفّذ العقاب، إنما الملاك الذي يرسله الإله: الأضرار، والعوز، والأمراض. ولكن إذا ما ندم هؤلاء وتابوا توبة حقيقية، وصاروا إلى خدم يخدمون الإله بكل قلوبهم، فإنه لن ينالهم أي حيف بعد ذلك. أما أولئك الذين أغواهم الملاك الشرير، وراحوا يعيّبون الرب، فإن ندمهم لن ينفعهم: مصيرهم هو الهلاك الأبدي، خسارة ملكوت السموات.

ولكن تشبيه الهلاك النهائي بخسارة ملكوت السموات لم يكن تشبيهاً عيانياً واضحاً: ابتداءً من القرن الميلادي الثاني أخذت تتشكل في أوساط المسيحيين تصورات عن المكان المخصص لمعاقبة الآثمين، وشتى وسائل الجزاء على الأعمال. ولم يعط كتاب العهد الجديد تحديداً واضحاً لمكان عقاب الأشرار، إلا أن أهم علامات هذا المكان حسب الكتاب المذكور، هي النار: سعير الجحيم، أتون النار «حيث البكاء وصريف الأسنان» (متى)، و «الظلمة الأزلية» كنقيض للنور، أي ملكوت السموات (متى). غير أن الوعي الجماهيري لدى من كانوا وثنيين منذ برهة ولا يدركون العالم إلا عبر صور حسية محددة، رأى في المناقضة الصوفية لطرفي معادلة عتمة - نور، مناقضة شديدة التجريد. وفي القرن ٢م أعطى كتاب رؤيا بطرس المنحول الذي عثر عليه مع مقاطع من إنجيل بطرس، وصفاً ما لجهنم: مكان مكفهر كئيب، يلقى الأشرار فيه شتى صنوف العقاب. وتعطي رؤيا بطرس لهذا المكان صورة تبعث الرعب في النفس: نار مستعرة، وبحيرة يعوم فيها مختلف أنواع القاذورات. هنا ينال عقابه الأبدي كلّ من كفر وترك طريق الحق؛ ولكن أقسى أنواع العقاب تنزل بأولئك الذين تركوا «الطريق القويم» (أي المسيحيين الذين ارتدوا عن تعاليم المسيح). وثمة في جهنم أيضاً الزانيات اللواتي أجهضن، والأثرياء الذين لم يمدوا يد العون لليتامى والأرامل، والمرابون، والقتلة الملقى بهم في حلكة مليئة بشتى أنواع الزواحف والقوارض السامة. ويشرف على إنزال العقاب ملائكة في ثياب حالكة السواد، ولكن ليس لأنهم قوى شريرة، إنما لكي تتلاءم أزياؤهم مع ظلام المكان. ويثير الانتباه في هذا المنحول تفصيل صغير يعكس وعي الجمهور المتعطش للانتقام: تشاهد صنوف التعذيب الرهيبة التي تنزل بالقتلة، أرواح القتلى الذين كانوا قد قتلوهم: ويمجد هؤلاء في أثناء ذلك العدالة الإلهية

(من الواضح أن العقاب الذي يناله المجرمون هنا والآلام التي تنزل بهم، تصدر عن الإله، حسب تصور المنحول، وليس ثمة وجود للشيطان في وصفه هذا).

ولجهنم وصف آخر يرقى إلى زمن متأخر بعض الشيء (القرن ٣م)، ورد في أعمال توما الرسول التي وصلت إلينا في روايتين: سورية وإغريقية، ومن الواضح أن هذه الأخيرة هي عبارة عن ترجمة معدّلة للنص السوري[1]. وتعد أعمال توما أثراً مسيحياً معقداً يحمل تأثيراً غنوصياً قوياً، إلا أنه يتضمن علاوة على التأملات اللاهوتية، قصصاً يرجع مصدر إنشائها إلى المعتقدات والتصورات الشعبية، ومنها وصف قصص بعد الموت. وقد جاء هذا الوصف أكثر تفصيلاً في النص الإغريقي منه في النص السوري، وهو يردد أصداء رؤيا بطرس، ولذلك سوف نتوقف عنده. فالوضع الذي يسبق وصف جهنم، على الوجه الآتي: شاب مسيحي يقتل الفتاة التي كان يعشقها لأنها رفضت أن تتخلى عن لهو العشق وتغدو مسيحية، فهو لم يكن يريدها أن تنتقل من رجل لآخر. ووصلت أخبار الجريمة إلى الرسول توما، فمضى هذا مع الفتى النادم التائب إلى الفتاة المقتولة وأحياها، وما كان من هذه بدورها إلا أن روت ما حصل لها بعد أن ماتت: «لقد أخذني رجل منظره مخيف، كله أسود، ثيابه ملطخة (صورة أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة ملاك القصاص - ي. س)، وقادني إلى مكان فيه مهاو كثيرة يتصاعد منها بخار قاتل». لقد كان بعض المهاوي يجأر بنيران مستعرة، وكان الباقي منها يعج بشتى أنواع القاذورات والديدان، كما رأت الفتاة كهوفاً تنبعث منها روائح نتنة. وفي أثناء ذلك كان المرافق الأسود يروي لها بالتفصيل عن الآثام التي يلقى الأشرار قصاصهم عليها: هنا الزناة (من الرجال والنساء)، والزوجات اللواتي تخلين عن أزواجهن وعاشرن رجالاً آخرين، والنساء اللواتي أجهضن أحمالهن. وهنا المفترون، والنمامون، والكذابون، والناطقون بالسوء دون أن يخجلوا من ذلك: كل من هؤلاء معلق من لسانه. أما المستهترون، والمتسيّبون، والحمقى فكل منهم معلق من شعره، وعلق اللصوص من أيديهم، وكذلك كل من لم يمد يد العون للمحتاجين؛ وعلق من قدميه كل من مشى في طريق الباطل طائعاً.. (أعمال توما). ونلفت الانتباه إلى أنه لا وجود في هذا الوصف للصالحين الذين يشاهدون آلام الأشرار، فقد باتت جهنم الآن مكاناً معزولاً تماماً عن مثوى النعيم. إن كلاً من رؤيا بطرس وأعمال توما: يعكس التصورات الشعبية عن القصاص المخصص لكل نوع من أنواع الجرائم: فلم يعد هذا

---

١- في كتابها: أعمال توما الرسول الذي صدر في موسكو في العام ١٩٩٠م، قدمت ي. ن ميشيرسكايا دراسة مسهبة للرواية السورية ولترجمة «الأعمال» عن النص السوري انظر كذلك: ي. ن ميشيرسكايا أعمال الرسل المنحولة. موسكو، ١٩٩٧.

«الظلمة الأزلية» أو «الجحيم المستعرة» اللتين تحدث عنهما المسيحيون الأوائل، الذين رأوا في فقدان نور الملكوت الإلهي أقسى أنواع القصاص. وما تجدر الإشارة إليه أنه ثمة ما يفيد في «أعمال توما» بأن هناك آلاماً لا تسمر أبداً: يقول الشخص الأسود، إن بعض الأرواح ينتهي عقابها، والأخرى يتواصل.

لكن مرافق المرأة ليس هو سيّد مكان القصاص، بل هو تابع من أتباع القوى العليا: عندما طلب منه حراس الكهوف روح المرأة، أجاب بقوله: «لا يمكنني أن أفعل ذلك، لأني أخشى ذلك الذي عهد بها إلي، فهو لم يأمر بإبقائها هنا. وأنا أتجول معها إلى أن يأتيني بها أمر». وبعد هذا قاد المرافق المرأة إلى مكان آخر، ثم عهد بها يسوع إلى توما الذي أعادها إلى الحياة بعد مقتلها. وعلى هذا النحو ليس مرافق المرأة تجسيداً للشر، بقدر كونه تجسيداً لكابوس القصاص؛ وقد آمن المسيحيون في غضون ذلك أن المعجزة قادرة على تجنيب المرء الآلام؛ كائناً من كان مرافق المرأة الأسود، إلا أنه لم يجرؤ على عصيان أمر يسوع.

ولكن التصورات المحددة عن آلام جهنم لم تعط إجابات على عدد من الأسئلة المهمة بالنسبة لدعاة التعاليم الدينية، كما بالنسبة للمسيحيين العاديين: ماذا كان يحصل لأرواح الموتى قبل ظهور المسيح، وأين مستقر الأسلاف الأوائل والأنبياء الذين كانوا قد بشروا بقدومه، وهل الجنة وجهنم كانتا موجودتين منذ الأزل؟ وقد تصدى للإجابة على هذه الأسئلة وسواها إنجيل نيقوديموس المنحول، الذي تضمن وصفاً لرحلة يسوع المسيح إلى جهنم[1]. ويبدأ هذا الإنجيل بروايات لأناس بعثوا من الموت بالجسد عائدين من جهنم، وأخذوا يروون ما كانوا قد شاهدوه هناك: تقع جهنم تحت الأرض (وجاء في هذا المنحول أن الحياة الدنيا تجري في «العالم العلوي»)، بيد أنها لا تظهر كمكان مخيف يجري فيه قصاص الآثمين، فقد أقام هناك قبل نزول المسيح إليها، آدم وأبناؤه، والأحبار والأنبياء التوراتيون، ويوحنا المعمدان. وثمة إشارة عابرة وردت في سياق كلام المعمدان، توحي بوجود الوثنيين هناك كذلك. ففي موعظة خاطب فيها هذا سكان جهنم، دعا الذين كانوا يعبدون الأوثان إلى التوبة، ثم لم يرد أي ذكر لهؤلاء بعد ذلك. وإلى جهنم يأتي الشيطان أيضاً، ويدور حديث بينه وبين جهنم التي تشخصت الآن تبعاً لتصورات العصر الإغريقي - الروماني عن سيد العالم

---

١- يتألف هذا الإنجيل من جزأين كل منهما موضوع مختلف: وصف التحقيق مع يسوع ومحاكمته، وقد وضع استناداً إلى وثيقة مزيفة نسبت إلى بيلاطس (لا سيما التقرير المزيف الذي زعم أن بيلاطس قد بعث به إلى الإمبراطور كلاوديوس، بينما حقيقة الأمر أن التقرير المذكور قد وضع فيما بعد بهدف تبرئة السلطات الرومانية من إعدام يسوع)؛ ووصف نزول يسوع إلى جهنم. وكان نص هذا المنحول قد وصل إلينا في نصه الإغريقي، ونصه اللاتيني الأكثر كمالاً، ثم في نصه السلافي.

السفلي هاديس، وغدت حارسة ذلك العالم. ومع أن جهنم كانت ترتبط بطريقة ما بالشيطان، إلا أنها لم تخضع له بعد، ولذلك فهي تجادله. وفي الحديث المعني ينذر الشيطان جهنّم بمجيء يسوع إليها، ويطلب منها ألا تتركه يعود. ويقول: إن يسوع يدعو نفسه ابن الإله، «لكنني أعرف أنه إنسان، وسمعته كيف كان يقول: تجزع نفسي حتى الموت». لكن جهنم تعترض وتؤوّل كلماته هذه هكذا: «لقد قال هذا لكي يسخر منك، ويقيدك بيد قوية». ومن الواضح أنه ينعكس هنا إدراكهم ليسوع (وهو الإدراك الذي أخذ يتكون من القرن ٢)، بصفته إلهاً كلي القدرة لا يمكن أن يعاني آلاماً. ففي حديثه مع جهنم تحديداً، يقول الشيطان إنه هو الذي حرض اليهود على قتل يسوع. وبعد ذلك يصف المنحول ظهور المسيح. فقد حاولت جهنم أن تمنعه من الدخول: أغلق العفاريت الخاضعون لها البوابات بالأقفال، لكن هذه تساقطت ودخل «ملك المجد» العالم السفلي بصفته إنساناً. فأقرت جهنم بالهزيمة، ودعت يسوع بالصغير الجبار، الوديع، المتسامي الذي يسود على الأموات والأحياء.. وما أن وطأت قدما يسوع أرض جهنم حتى أمر ملائكته بالقبض على الشيطان وتقييده وتسليمه إلى جهنم لكي تحتجزه عندها حتى المجيء الثاني ليسوع. وهكذا توحدت جهنم والشيطان وباتت هذه مستقرة. أما الصديقون التوراتيون فقد قادهم يسوع مع يوحنا المعمدان إلى الجنة، وبذا تكون شجرة الصليب قد حققت خلاص من أهلكتهم شجرة المعرفة[1]، ورسم يسوع فوق رؤوسهم علامة الصليب فمجدوه رباً. ولم يكن في الجنة قبل مجيء المسيح سوى حنوك وإيليا؛ ثم مضى إلى هناك أيضاً قاطع الطريق التائب الذي صلب مع يسوع، وقد جاء هذا حاملاً معه صليبه، لكنهم منعوه من الدخول لحين وصول الصديقين التوراتيين الخارجين من جهنم.

وتتمثل الفكرة اللاهوتية الرئيسة لهذا الجزء من إنجيل نيقوديموس في أن ظهور يسوع المسيح قد غير النظام الكوني كله: السماء، والأرض، والعالم السفلي، ومستقبل الجنس البشري، بل ماضيه كذلك. فيسوع القائم من الموت وحده الذي جعل الجنة مستقراً للأبرار، ونزوله إلى جهنم، هو الذي جعلها مستقراً للشيطان. وقد بدت هذه الفرضية التي عبر عنها في شكل تعبيري محدد، قريبة جداً من جمهرة المؤمنين، ومع الوقت كفت جهنم عن أن تكون تشخيصاً لهاديس، وصارت إلى مكان مظلم مخيف لا يشرف الملائكة فيه على قصاص

١- يبدو كأن هذا الحدث قد ضم الأحبار والأنبياء الأوائل إلى المسيحيين وفصلهم عن اليهودية. وبهذا تندرج الرواية التوراتية في اللاهوت المسيحي، وفي آخر القصة جاء اليهود العائدون من الموت وقبلوا سر المعمودية في نهر الأردن، ويروى أنهم أعيدوا إلى الأرض لكي يخبروا بالمعجزات التي تحققت.

الأشرار، إنما العفاريت التي تأتمر بأمر الشيطان. بيد أنه من الصعب أن نجزم بمدى سرعة انتشار هذا التصور الجديد. فهناك في إنجيل بطرس المنحول تنويهاً عاجلاً بنزول يسوع إلى جهنم، إلا أنه ليس ثمة أي تفاصيل. ونحن يمكننا أن نعتقد بأن تصوراتهم عن قصاص محدد يجري في مكان مظلم (هذا المكان لا يدعى جهنم في «رؤيا بطرس» ولا في أعمال توما)، وعن تحول مملكة هاديس السفلى إلى جهنم المسيحية، كانت قد تشكلت شيئاً فشيئاً لدى مختلف الجماعات المسيحية، إلى أن أخذت في نهاية المطاف صيغتها وباتت مشتركة لدى جميعهم.

ولكن المسيحيين لم يخافوا القصاص في جهنم فقط، إنما أملوا نيل الحياة الأبدية في الجنة أيضاً. ففي وقت متزامن مع ظهور التصورات عن أنواع القصاص، ظهرت أولى أشكال وصف الجنة. ومن المعروف أن إنجيل العهد الجديد لم يعالج نظرية الجنة، فمثال أليعازر في إنجيل لوقا، يتحدث عن الثري الذي كان يتنعم، وأليعازر المعدم الذي كان يستلقي عند بواباته وجراحه متقرحة. وبعد الموت احترق الثري بنار جهنم، بينما حمل الملاك أليعازر إلى «حضن إبراهيم»، وهو المكان الذي جمع فيه إبراهيم أبناءه الأبرار. وليس واضحاً ما الذي كان يمثله هذا المكان. فهو مكان تفصله عن جهنم هوة لا قرار لها، ومع ذلك فإن بطلي هذا المثل يرى واحدهما الآخر، ومعنى ذلك أن «حضن إبراهيم» ليس في السماء، إنما في مكان ما خاص. ونحن نجد كلمة «جنة» (فردوس، بستان، بالإغريقية)، في إنجيل لوقا في قصة اللصين اللذين صلبا مع يسوع: أحدهما شتمه، والآخر وعظ الشاتم، وتوسل يسوع قائلاً: «.. اذكرني يا رب متى أتيت في ملكوتك»، فأجابه يسوع: «اليوم تكون معي في الجنة». أما في إنجيل متّى فقد شتم اللصان معاً يسوع؛ ولا يتحدث إنجيل لوقا إلا عن صلب لصين مع يسوع، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وربما كانت هذه الإشارة بالذات هي التي أوحت بمعاكسة الأحمق اليساري، بالصالح اليميني، وأعطت أساساً للوقا وحده دون الإنجيليين الآخرين لأن يكثف هذا المشهد.

ويصف إنجيل العهد الجديد مصير الأبرار بعد الموت، وصفاً مجازياً: مخدع الزوجية في مثال متّى عن الوليمة، «فرح ربّك» في مثال المواهب (متى) وجاء في رسالة بولس الأولى إلى الكورونثيين، إنه «لم تر ذلك عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب إنسان ما أعده الإله لمحبّيه»[1]. وثمة في رؤيا يوحنا وصف «لأورشليم المدينة العظيمة التي هبطت من السماء من

---

١- هذه الكلمات هي إعادة صياغة لما ورد في سفر اشعياء التوراتي «لأنه منذ الأزل لم تسمع أذن، ولم تر عين إلهاً آخر أعد كل هذا للذين اعتمدوا عليه». وتبعاً للإيمان بملكوت الإله الوشيك نقل بولس الثواب إلى الزمن الآتي.

لدن الإله»: أورشليم سماوية هبطت على الأرض حيث سوف تتحقق مملكة الإله. لهذه الأورشليم اثنتا عشرة بوابة (أسباط إسرائيل، وتلاميذ يسوع)، كما وصف يوحنا الحجارة الكريمة واللآلئ التي تزين أسوارها وأبوابها، وما يلفت الانتباه أنه ليس في المدينة معبد، لأن الرب الإله هو معبدها، وليس هناك شمس ولا قمر، لأن قنديله هو الحَمَلُ (كناية عن يسوع). وسوف تغدو هناك وتروح الشعوب التي نالت الخلاص، لكن أياً من غير الطاهرين لن يدخل المدينة (رؤيا). ولكن هذا الوصف التعبيري الرمزي ليس وصف الجنة، إنما هو تصور اليهود - المسيحيين عن أورشليم المنبعثة من جديد، لتضم شعوباً شتى بعد يوم القيامة. بيد أن يوم القيامة هذا قد تأجل إلى زمن قادم غير محدد، وكان من الضروري بالنسبة لجماهير المسيحيين أن يحدد التصور عما ينتظرها إذا هي اتبعت طريق البر ونالت الجنة. فظهر في القرن ٢م أكثر من وصف للجنة وجهنم، حملهم إلينا كتاب رؤيا بطرس الذي يروي لنا عن أمكنة يقيم فيها «الأخوة الأبرار»: لقد أرى السيد تلاميذه مدى مترامياً يمتد خارج هذا العالم ينبعث منه ضياء خارق، ويبرق هواؤه بأشعة الشمس، وتزهو أرضه بزهور لا مثيل لروعتها ونباتات مزهرة يضوع عطرها، وتطرح ثمراً لم ير أحد مثله قط. وكان ساكنو تلك الأرض يرتدون ثياب الملائكة، وكان هؤلاء يرفرفون بينهم. وعلى المنوال نفسه كان جمال البشر الذين يعيشون هناك. ولم يفت المؤلف أن يصف صورة القديسين الذين كانوا تلاميذ: أجسادهم أكثر بياضاً من أي ثلج وأكثر احمراراً من كل زهر، وقد اختلط فيها اللونان، شعرهم مسترسل لامع.. وكان الأبرار يسبحون الرب الإله بصوت واحد. ومن الواضح أن الجنة في هذا المنحول، ليست أورشليم السماوية، إنما بستان تداخلت في وصفه القصص التوراتية عن عدن، وفكرة النور الإلهي، والخرافات الوثنية عن جزائر النعيم التي يقيم فيها الأبطال والحكماء. وفي مؤلفه «التاريخ الحق» يحاكي لوقيانوس هاجياً هذه المعتقدات كأنما يصفها على لسان شاهد عيان رأى الجزيرة بأم عينه، فالأرض ملكوءة بشتى أنواع الزهور، والأشجار المثمرة، والأعناب، وتتجول فيها أطياف لا أجساد لها. ولكن هذه الأطياف تقع خلافاً للجنة المسيحية، في فضاء شبه معتم. وفيما بعد دخلت التصورات التي أنشأتها المسيحية الشعبية عن الجنة وجهنم، في تعاليم الكنيسة، مع أن هذه الأخيرة لم تعترف بالمنحولات التي حملت وصفهما. ولكن لم يكن وصف الجنة وجهنم وحده الذي شغل عقول المؤمنين.

فابتداءً من القرن ٢م، وبخاصة في القرنين ٣-٤م، شاع في الإمبراطورية الرومانية جنس أدبي مسيحي خاص، تمثل في الحكايات الخرافية التي كرّست لشخصيات التاريخ الإنجيلي، وقد كملت هذه الحكايات المعلومات التي تضمنتها أناجيل العهد الجديد عنهم،

وعرضتها بطريقة مختلفة. ففي الأناجيل المبكرة، سواء التي دخلت الناموس أو الأناجيل اليهودية - المسيحية، كان الأساس الذي قامت عليه التعاليم، هو سر معجزة قيامة المسيح، هذه القيامة التي وعدت بمغفرة الخطايا والخلاص لدى حلول النهاية الوشيكة لهذا العالم الدنيوي. حتى المعجزات التي صنعها يسوع وفق ما ورد في الأناجيل، لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى معجزة القيامة. فمعجزات يسوع كانت بالنسبة لمؤمني القرن ١م، معجزات شفاء من الأمراض قبل كل شيء. وساقت أعمال الرسل على لسان بطرس كلمات عن يسوع: «لقد مضى يبارك الجميع ويشفي من سكنهم الشيطان، لأن الإله كان معه». ثم أعطى يسوع تعليمات شفاء المرضى لرسله: وفق إنجيل توما الذي عثر عليه في نجع حمادي: «اشفوا المرضى بينهم». ولكن الذين اعتنقوا المسيحية لتوهم آتين من مختلف الجنسيات والتقاليد، كانوا بحاجة، كما يتضح من إنجيل الطفولة، إلى الإيمان بمسيحية كلية القدرة، ظافرة في كل شيء وفي كل مكان، وبإمكانية تحقيق معجزات ليس أقل من تلك التي وصفها الأدب الوثني. وكان قد وصف في هذا الأدب مختلف ضروب المعجزات المستحيلة التي حققتها شخصيات تاريخية حقيقية أو أبطال خلقتهم المخيلة، وقد جاء وصف ذلك كله لمساعدة الناس على سلوان أعباء الحياة وصعوباتها في الإمبراطورية البيروقراطية المترامية الأطراف. وهكذا شاعت حكاية الإسكندر المقدوني التي أنشأها المصريون، الذين رأوا في الإسكندر ابن الفرعون الأخير نيكتانيب. وتزعم القصة أن الإسكندر وجد نفسه في أثناء حملته الشرقية وقد دخل أرض العمالقة، وآكلي البشر، والأقزام، كما زار أيضاً المكان الذي يعيش فيه «المغبوطون». لقد كان لهذه القصة حضور شعبي جعلهم يترجمونها إلى لغات مختلفة منها، اللغة اللاتينية واللغة السورية. وكتب فليغونت في القرن ٢م «قصصاً مدهشة» يظهر فيها الأقزام، والعمالقة، والأشباح، والفيلسوف الشهير الذي عاش في القرن الميلادي الأول وعدّ من صانعي المعجزات. ونحن لا نستبعد أن يكون هذا العمل قد كتب تحت تأثير الأدب المسيحي ومناهضاً له في الآن عينه، ومع ذلك فإنه لا يمكن النظر إلى فيلوستراتوس في سياق هذا الأدب، وفق مصطلحي الاقتباس والتبعية.

وليس مستغرباً أنه على هذه الخلفية ذاتها نشأت قصص لا عن يسوع ووالدته فقط، إنما عن بيلاطس كذلك، وعن أعمال بعض الرسل. والسمة التي تميزت بها هذه الكتابات غير المعترف بها من قبل الكنيسة، هي الجمع بين وصف المعجزات الأكثر خرافية (المرتبطة غالباً بالتقاليد الفولكلورية) من تلك التي وصفها العهد الجديد، وبين الإرشادات التي سيقت على لسان الرسل وأولئك الذين يدعون شهود المسيح. بيد أننا إذا ما تمعنا في محتوى

المنحولات، فإننا نستطيع أن نرى أن وصف المعجزات فيها، خلافاً لأكثر المؤلفات الوثنية في الجنس عينه، قد أدى مع مواقف أبطال الخرافات الوظيفة عينها من حيث الجوهر: إظهار انتصار الإيمان المسيحي لا في المقبل البعيد، بل ابتداءً من لحظة بدء بشارة يسوع والرسل. وعلى هذه الخلفية باتت المعجزة لا تشكل سراً عظيماً بالنسبة لقاعدة المؤمنين المسيحيين. فهي يمكن أن تتحقق في أي وقت ومع أي كان. لقد تجلى في مثل هذه المؤلفات ما يمكن أن ندعوه الإبداع المثيولوجي التعويضي أو الموازن: عندما يتجسد المأمول المرتجى في إعادة فهم (أو حتى تزوير) التاريخ المقدس والزمني.

ويمكننا أن نتتبع حركة صيرورة مثل هذا الإبداع المثيولوجي أولاً وقبل كل شيء على مثال وصف أعمال بعض الرسل. فهنا يجري تحديد دقيق لمكان الحدث، وهو على وجه العموم مكان يعرفه سكان الإمبراطورية جيداً؛ ويجري كذلك إبراز شخصيات الحدث الحقيقة والمختلفة، بمن فيهم أباطرة روما وكبار موظفي الدولة الذين كانت تصرفاتهم مشروطة بموقف كل منهم تجاه المسيحية: إما أن يؤمنوا مباشرة بعد أن تصلهم البشارة ويرون المعجزات، أو ينزل العقاب بهم مباشرة بسبب تنكيلهم بالمسيحيين.

لقد وصلت إلينا أعمال الرسل المنحولة في روايات شتى وبلغات مختلفة (الإغريقية، والسورية، واللاتينية)، وهو ما يدل على شيوعها وشعبيتها الواسعة، على الرغم من عدم اعتراف الكنيسة بها. وكان السرد القصصي المتبع في محاور مثل هذه الأعمال على النحو الآتي: يصل الرسول إلى مدينة ما ليبشر بتعاليم المسيح، ويأتي مختلف المعجزات، فيدهش الشعب لدعوة الغريب وتتبعه الحشود. ومن الجدير قوله، أن المنشأ الأجنبي للداعية قد حفز من قوة تأثير دعوة الرسل على الشعب: من جهة كان الناس يخشون الغرباء، ومن جهة أخرى كانوا يؤمنون بجبروتهم. وقد أكد الباحث المعاصر في تاريخ العصر القديم بيتر براون، أن شعوب المقاطعات الشرقية تحديداً كانت وقتئذٍ ترى في الغريب كائناً خارقاً، وبجلوه بصفته صانع معجزات وقديس، لأنه لم يكن معروفاً في المكان وليس له فيه أي صلات عائلية أو مشاعية.

وفي أكثر الأعمال يدفع الرسول الحشد إلى تدمير معابد الوثنيين وأوثانهم، أو يفعل هو ذلك بكلمة منه. ثم تلي ذلك مواجهة مع السلطات. وعادة ما يجعلون أحداً ما من بيت الحاكم أو المقربين منه يعتنق المسيحية، وغالباً ما يكون الشخص المعني من النساء (وهذا ما يعكس الدور الحقيقي الذي أدته المرأة في مسيحية القرون الأولى). وفي هذه الحال كان الحاكم يعتنق الدين الجديد، أو يأمر بقتل الرسول، فيجر بذلك على نفسه عقاباً رهيباً. وقد

يحضر في الأعمال على التوالي، الحاكم الصالح والحاكم الشرير، كما على سبيل المثال في «آلام الرسول أندراوس»، وهو النص الذي يرتبط بمؤلف: أعمال اندراوس؛ وكان هذا المؤلف قد وضع في وقت مبكر بعض الشيء: ربما عند نهاية القرن ٢ وبداية القرن ٣م. وتدور أحداث القصة في مدينة تدعى باترا، مقر حاكم مقاطعة آخايا. فقد آمن الحاكم ليسبس ومعه الشعب كله بالمسيحية، واندفع جميعهم يدمر المعابد الوثنية ويحطم أوثانها، واحتفل ليسبس معهم بذلك المهرجان. ولكن الإمبراطور عزل ليسبس وعين إيجيات الذي حكم على اندراوس بالإعدام صلباً. ولكن زوجة إيجيات اعتنقت المسيحية، ثم تركته، «فاكتأبت روحه» ورمى بنفسه من مكان شاهق ومات. إن هذه القصة كلها، قصة تدمير المعابد وتحطيم الأوثان في القرن ١م، واعتناق الحاكم الديانة المسيحية، قصة مختلقة ولا أساس لها من الصحة. فاسما الحاكمين مختلفان، وقد اشتقّا من اسمي منطقتين. كما لم يكن من الممكن أن يحملهما سوى معتوقين، ووجود مثل هؤلاء حكام مقاطعات في تلك الحقبة، أمر غير معقول أبداً، ضف إلى هذا كله أن أسماء الولاة والشخصيات السياسية، كما هي حال تاريخ القرن ١م كله، معروفة جيداً وكان يمكن لمؤلف هذا المنحول أن يطلع عليها. بيد أن الواقع التاريخي لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لمؤلفي مثل هذه الأعمال: ولم يكن مكان الحدث، والاسم الحقيقي للمنصب أكثر من إطار للأحداث التي لم تحدث قط، بيد أنه كان ينبغي عليها أن تحدث. وإلى القرن ٢م ينتمي مؤلف أعمال بولس وتقلا، وقد كتبت هذه الأعمال وفق نموذج ما عرف بالرواية الهلنستية التي عادة ما توصف فيها المصائب التي تقع لعاشقين فرقتهما الظروف. ولكن حديث الحب الذي يجري في «أعمال بولس وتقلا» يتناول الحب الروحي، الحب المسيحي، الذي له القوة العاطفية عينها، حب التلميذة لمرشدها. فتقلا فتاة رائعة تركت عائلتها وخطيبها بعد أن أخذت تماماً بدعوة بولس واعتنقت المسيحية، فكرست كل قواها للحفاظ على عذريتها، وعانت جراء ذلك شتى أشكال المضايقات والملاحقات، ثم حكموا عليها بالموت، ولكن معجزة أنقذتها منه. ويزعم ترتوليانوس أن راعي إحدى كنائس آسيا الصغرى، هو الذي كتب «أعمال بولس وتقلا»، وعزل بسبب ذلك من وظيفته (الجدال)، لأن القصة التي سيقت في العمل كانت مليئة بالمعجزات التي لم يكن بمقدور قادة المؤمنين وقتذاك أن يقبلوا بها: يكفي أن نشير على سبيل المثال، إلى أن يسوع تقمص صورة بولس لكي ينقذ تقلا من الموت الذي كان محدقاً بها. وعلى أي حال لم يشكل قرار قادة المسيحيين المحليين ضد مؤلف «أعمال بولس وتقلا» عائقاً أمام انتشار هذا المنحول.

وأثناء نسخ المنحولات وإعادة نسخها وتحريرها، تعرضت نصوصها للتغيير، فباتت النسخ الأحدث عهداً أكثر تعقيداً. وكان بعض المنحولات قد وضع مرة واحدة بصفته مؤلفاً مكتوباً: تقارير بيلاطس إلى كلاوديوس التي جاءت محاكية للتقارير الإلزامية التي كان ينبغي على الولاة أن يرفعوها دورياً للأباطرة، وأدى انتشار معرفة القراءة والكتابة في الإمبراطورية، وشيوع التخاطب كتابة، إلى نشوء جنس خاص من الكتابات كان له تأثيره على المسيحيين أيضاً. ففي الرواية السورية لأعمال أدّاي (واحد من الرسل) سيق نص الرسالة التي بعث بها الأبجر حاكم منقطة أوسروين إلى يسوع، وقد رد يسوع عليها برسالة جوابية شفهية، ولكن يوسفوس القيصري يورد في «التاريخ الكنسي»، رسالة يسوع نفسه إلى الأبجر.

وليس بين الباحثين وحدة رأي حول مصادر هذا الأدب. فتأثير الفولكلور واضح بجلاء في وصف المعجزات، وقد يكون لوصف المعجزات الوثنية تأثير في هذا المجال أيضاً. ولكن إذا كان الحديث ممكناً عن وجود تشابه معلوم بين الأدب الإغريقي - الروماني، والأدب المسيحي في القرون ٢-٤م، فإن هذا ينسحب أساساً على بعض الخطوط المحورية. ولا يجوز لنا أن نتجاهل أن السمة الجوهرية التي تميز الكتابات المسيحية عن الأدب الإغريقي - الروماني، هي الوظيفة التبشيرية الدفاعية، وكذلك السعي إلى إدراج الإرشادات اللاهوتية والتعاليم الأخلاقية في المحور التشويقي.

ويمكننا أن نلحظ في استخدام الأعمال للخلفية التاريخية ووقائع الحياة اليومية، حضوراً ما للتقاليد التوراتية. وكما أشار إ. فينبرغ، فإن كتاب العهد القديم عرف جنس الحكاية السحرية التي تروي حدثاً مختلفاً لا أساس له، ولكنها تفعل ذلك في قالب يهدف إلى خلق انطباع لدى القارئ - المستمع، بأنه أمام حدث حقيقي، ولذلك كانت تدرج في الحكاية تفاصيل معينة لم يكن نادراً أن تكون حقيقية. ولبعض الروايات «التاريخية» التوراتية التي أبطالها مختلقون، توجه إيديولوجي محدد: قصة استير وموردخاي على سبيل المثال، اللذين أنقذا الشعب اليهودي من الإبادة التي كان يعد لها هامان الغدار، الذي كان مقرباً من الإمبراطور الفارسي ارتاكسيراكس. فهذا الموضوع نفسه موضوع مختلق وكذلك شخصياته، حتى أسماء هؤلاء ليست أسماء يهودية، بل فارسية أو ربما بابلية. لقد أنشئت هذه الراوية أساساً لتبرير نشاط اليهود في القصر الفارسي، وهي ترتبط بالحالة السياسية التي كان يعيشها اليهود في المملكة الفارسية قبل فتوحات الإسكندر المقدوني، وعكست مطالب مؤلفيها ومتلقيها، كما انطلقت من القيمة الرئيسة التي كانت تدعو إليها: التفاني

في خدمة شعبك ضمن أي ظروف كانت. وقد كان يمكن لهذين الجنسين الأدبيين، التوراتي والوثني، أن يتركا تأثيراً على صيغة الكتابات المسيحية، إلا أن مهمة هذه الأخيرة وتعاملها مع التاريخ كانا مختلفين، لأن أبطالها: الرسل، كانوا شخصيات حقيقية معروفة، لكنهم كانوا يعملون في حالات مختلفة غير واقعية، ولأن مهمة الأعمال لم تتمثل في إضفاء الواقعية على الحكاية، إنما في إعادة إنشاء الحدث التاريخي بطريقة متحيزة. فما ورد في سفر استير لم يقع في أي زمان ومكان، إلا أنه نظرياً كان يمكن أن يحدث: لقد كان ثمة يهود يخدمون فعلاً لدى الإمبراطور الفارسي، ومن المعروف أنه كان للإمبراطورة دور كبير في القصر. أما ما وصفته المنحولات المسيحية فهو لم يحدث وكان من المستحيل أن يحدث.

لقد قامت في أساس أكثر الأعمال المنحولة، الروايات الشفهية التي ظهرت بعد إقرار الناموس المسيحي، وكانت هذه مدعوة لملء الفراغ في كتب العهد الجديد، وتمجيد الرسل الذين كانوا يحظون بتبجيل خاص في المنطقة المعنية، وما يلفت الانتباه أن قصص العهد الجديد قد خضعت في الأعمال المنحولة إلى معالجة فريدة من نوعها: يتضح هذا لنا عندما نجري مقارنة بين قصة مجيء بولس ومرافقيه إلى أفَسُس كما وردت في كتاب العهد الجديد، والقصة نفسها كما وردت في أعمال بولس الرسول المنحولة. فالأعمال في العهد الجديد التي كتبها حسب ما يرى أكثر الباحثين، مؤلف الإنجيل الثالث، تتضمن دون شك مبالغات واضحة في النتائج التي حققتها مواعظ الرسل، وفي حالات الشفاء التي حققوها. ولكن أكثرها نقل إلينا الوضع الذي كان يحيط بعمل الدعاة المسيحيين، بكثير من الواقعية: لقد كتب المؤلف الذي كان مرافقاً لبولس، كتب لأناس رأوا الكثير بأم أعينهم. وبالنسبة لهؤلاء كانت معجزة القيامة، قيامة يسوع، المعجزة الوحيد التي لا يمكن أن يكون لها مثيل أو نظير تقارن به. لقد آمنوا بقرب المجيء الثاني ليسوع الذي سوف يحقق لهم الخلاص، آمنوا بهذا إيماناً مطلقاً، حتى من غير أي قصص خيالية عن معابد تتهاوى بأوثانها في غمضة عين، أو اعتناق حكام وولاة للدين المسيحي. ويكفي أن نسترجع هنا وصف رد فعل الاثينيين على موعظة بولس في أثينا (أعمال الرسل)، حيث لم يتبع بولس عندئذٍ سوى شخصين؛ أو الصدام الذي وقع له مع حرفيي أفَسُس الذين تجمعوا في المسرح وفرق جمعهم أحد الحكام المحليين خوفاً من رد فعل السلطات الرومانية. فليست مثل هذه الحالة حالة حقيقية مطابقة لواقع الأشياء وحسب، بل هي حالة نموذجية لما كان يمكن أن يجري فعلاً: لقد كان سكان دول المدن الإغريقية لا يزالون يحسون أنفسهم شعباً له الحق في أن يقول رأيه في أي مسألة كانت، أما الرومان فقد كانوا يبذلون كل جهد لإخضاع هذا الشعب

الذي كان قد تحول من حيث الجوهر إلى مجرد حشود غوغائية، ووضعه ضمن نظام صارم. وتقول أعمال الرسل فيما يتعلق ببولس، إنه لم يكن موجوداً في الاجتماع، مع أنه رغب في أن يمضي إلى هناك، إلا أن تلاميذه وأصدقاءه منعوه.

ولكن هذه القصة لم تكن بالنسبة لمسيحيي الطور الأخير من الزمن القديم، ذات تأثير ملهم. وهاك وصف أعمال بولس المنحولة لحادثة مكوثه في أفَسُس: لقد انضم إليه حشد كبير من الناس، لكن ذلك كان السبب الذي أدى إلى التذمر: «إن هذا الشخص يحطم الآلهة، ويقول: سوف ترون أنتم كيف يحترقون في النار». فاختطف الحشد بولس وجاء به إلى المسرح، وهنا يأتي إليهم حاكم الولاية بنفسه، وليس مجرد أحد كبار الموظفين فقط. وكما في كل المؤلفات المماثلة، فقد ألقى بولس موعظة، وبعد ذلك اقترح الحاكم على الحشود أن تبت في أمره (كما اقترح بيلاطس في حينه على الحشود اليهودية أن تقرر مصير يسوع). فاقترح الحشد أن يرمى بولس للكواسر، فأمر الحاكم أن يجلد بولس ويرمى به للكواسر تمزقه. ولكن بما أننا نعرف أن بولس بقي على قيد الحياة بعد حادثة أفَسُس (يؤكد التقليد أنه ذهب ضحية تنكيل نيرون بالمسيحيين في روما)، إذن يجب أن يكون قد وقع أمر ما خيالي في مسرح أفَسُس. وحسب رواية المنحول عن الأحداث التي سبقت وصول بولس إلى أفَسُس، أن بولس قابل في طريقه إلى هناك أسداً مهولاً ركع عند قدمي الرسول وتوسل إليه بلسان بشري أن يمنحه المعمودية المسيحية، وقد لبى بولس طلب الوحش. وبعد أن تلقى هذا سر المعمودية مضى إلى البرية، وهذا الأسد بالذات، هو الذي أطلقوه في المسرح على بولس، فتحدث إليه ثانية ولم يمسه بسوء.

ومن الواضح أنه ليس ثمة ما هو مشترك بين هذه القصة والقصة التي وردت في العهد الجديد، سوى مكان الحدث: أفَسُس والحشد الذي اجتمع في مسرحها. ولكن إنشاء القصة المنحولة كان له منطقه الداخلي: لقد أدى استبدال حاكم الولاية بواحد من كبار الموظفين إلى إعطاء الحدث مزيداً من الأهمية، وقدم للمعاصرين عنصراً لصدقيه القصة، لأنه لم يكن من حق الحاكم المحلي قانوناً، أن يصدر حكماً بالإعدام. وفي الأحوال كلها، من المشكوك فيه أنه كان بمقدور الوالي نفسه أن يفعل ذلك في القرن ١م. إذا ما تعلق الأمر بمواطن روماني، وقد كان بولس مواطناً رومانياً. ولكن سكان الإمبراطورية الأحرار كلهم نالوا حقوق المواطنية الرومانية في العام ٢١٢م، وعندما وضع مؤلف أعمال بولس، يبدو أنهم كانوا قد نسوا كل شيء عن المعايير القانونية التي كان معمولاً بها في بداية القرن الميلادي الأول. ولذلك سحبوا معايير زمنهم على الماضي، وكان هذا واحداً من الأساليب النموذجية لما

يدعى بحركة «التحديث»، وقد تكون هذه جرت بغير وعي منهم. وتساعد هذه الطريقة على إنشاء ما زعموا أنه التاريخ الحقيقي.

وتجدر الإشارة إلى أن لقصة خروج بولس إلى المسرح تعليل مبتكر في كتاب العهد الجديد. ففي رسالته الأولى إلى الكورونثيين ينوه بولس إلى أنه قاتل الضواري في أفَسُس. وكانت كلمة «ضواري»، أو «وحوش» تستخدم وقتئذٍ في المناظرات التقليدية كدلالة بلاغية على الخصم. وبما أن أغناطيوس استخدم في رسالته التي كتبها إلى الرومان في القرن الميلادي الأول، تعبيراً مماثلاً لدى حديثه عن حراسه، فإننا لا نستبعد أن يكون بولس قد اعتقل أيضاً، وأنه دعا الذين ألقوا عليه القبض وحوشاً، بيد أنه ليس بين يدينا معطيات مباشرة تفيد باعتقاله في أفَسُس. وحسب أعمال الرسل، ورسائل بولس نفسه، أنه ترك أفَسُس بسلام قاصداً مقدونيا. ولكن التعبير الذي استخدمه أيقظ المخيلة الشعبية، لا سيما أن الرومان في أثناء تنكيلهم بالمسيحيين في القرن ٣م، كانوا يرمون بهم إلى الأسود لتمزقهم، إلا أن معطيات القرن ١م لا تفيد بلجوئهم إلى مثل هذه الأساليب في المقاطعات، فما بالك إذا كان بولس مواطناً رومانياً. فالمواطنون الرومان كانوا وقتئذٍ في المقاطعات قلة، ولم تكن حقوق المواطنية تمنح لسكانها إلا لأفراد، وبموجب مرسوم خاص (من المعروف أن بولس بالأصل من سكان مدينة طرسوس في آسيا الصغرى، وربما كان قد منح حقوق المواطنية مع باقي أفراد عائلته لأنهم كانوا يصنعون الخيم للجيش الروماني). والتزاماً منهم بمهمة إملاء الفراغات، أضاف كتاب الأعمال المنحولة مشهداً جديداً، درامياً وإعجازياً، ولكنه في الآن عينه كأنه حقيقي يستند إلى كلمات بولس نفسه. ومن سمات أعمال الرسل المنحولة هذه، حضور الأسد الناطق الذي اعتنق المسيحية. وقد كان يجب أن يعظم هذا المشهد من شأن بولس ويزيد من تأثير الحكاية على المسيحيين الذين جاؤوا المسيحية لتوهم من الوثنية إذ نشؤوا هناك على الحكايات والخرافات.

ويحقق الرسل في الأعمال المنحولة انتصارات خرافية لا على اليهود فقط، إنما على الوثنيين وسواهم من حاملي التعاليم الباطلة الآخرين. ففي الحكايات المنحولة التي رويت عن بطرس، زرعت بمحتوى خرافي قصة مقارعة المسيحيين الأرثوذكس لسمعان الساحر. ولم يكن الجدال اللاهوتي كافياً لتحقيق النصر بالنسبة لجماهير المسيحيين، وربما لم يكن مثل هذا الجدال مفهوماً بالنسبة لهؤلاء أصلاً. ويروي مختلف الخرافات التي ترقى إلى القرن ٢م، والتي انعكست في الأعمال التي تنسب إلى كليمينت، عن المواجهات التي وقعت بين بطرس وسمعان في قيصرية فلسطين وروما. ففي العاصمة هزم بطرس سمعان بمعجزاته: أقام

عضو السينات من الموت، وهو ما عجز سمعان عن فعله، وعندما رفعت العفاريت الساحر في الهواء، جعلهم بطرس يهوون معاً إلى الأرض بكلمة واحدة. لقد كانت مثل هذه الحكايات شائعة جداً منذ القرن ٢م، ثم زيد عليها المشهد إثر المشهد، ولم يكن لمثل هذه المشاهد أي صلة حتى بما زعم أنه تاريخ. فثمة أدوار في مثل هذه المشاهد تؤديها حيوانات ناطقة: الكلب الضاري الذي فضح سمعان بدلاً من أن يهاجم بطرس. إن الحيوانات الناطقة تحقق هنا الإرادة الإلهية، وهي لا تعكس فقط التقليد السحري، بل يجري ربطها في سياق تصورهم عن ذلك العالم المتحول الذي كان قد وصفه بابيوس على أساس القصص الشفهية: كل ما هو حي يذعن للإرادة الإلهية، حتى الحيوانات، بل والضارية منها كذلك سوف تخدم الصالحين.

ومن الملاحظ في خرافات الرسل المبكرة نسبياً، مثل آلام أندراوس، وأعمال بولس وتقلا، وأعمال برنابا (وربما كان هذا المؤلف الأخير هو الأكثر واقعية بين الأعمال الأخرى المشابهة)، أن الرسل يواجهون فيها السلطات المحلية، ففي قصة أندراوس أن الإمبراطور عزل الوالي الذي آمن به، لسبب رئيس، هو أن هذا الأخير وقف إلى جانب المسيحيين وساهم في تدمير المعابد الوثنية. ولكن الأعمال والحكايات التي وضعت في القرن ٣م، وتلك التي كتبت وأعيدت كتابتها بعد أن اعترف قسطنطين بالمسيحية، فإن مشاهدها التي دعيت بالمشاهد التاريخية، ترتبط قبل كل شيء بعلاقة أبطالها الرئيسين مع الأباطرة طيباريوس، وكلاوديوس، ونيرون، الذين كانوا معاصرين ليسوع والرسل. فهؤلاء الأباطرة وكذلك الشخصيات المقربة منهم قد أصغوا على وجه العموم للمواعظ المسيحية وانتصحوا بها. وما له دلالته، أن إنشاء المشاهد التاريخية المزعومة، كان له بعض من أساس تاريخي يمكن أن يتذكره المؤمنون أم يقرؤون عنه أو يسمعون به في خطب الوثنيين التي كانت شائعة جداً وقتئذٍ. ونحن يمكننا أن نتتبّع في بعض الأمثلة كيف كانت تجري إعادة بناء الأحداث الحقيقية وتزييفها في المنحولات.

يروي سفيتونيوس في سيرة حياة طيباريوس (طيباريوس)، أن الإمبراطور حظر الأعمال المقدسة الأجنبية، بخاصة اليهودية منها والمصرية؛ وبحجة الخدمة العسكرية وزع اليهود الشباب على المقاطعات ذات المناخ القاسي (لكن هذا الإجراء لم يعط ثماره المرجوة، ففي ظل الأباطرة الذين جاؤوا بعد طيباريوس شاعت العبادتان المذكورتان في روما من جديد). وفي واحدة من الخرافات التي كرست لنهاية بيلاطس، وكتبت في القرن ٣م باللغة الإغريقية، أن بيلاطس مثل بين يدي الإمبراطور طيباريوس الذي اتهمه بموت يسوع، لكن بيلاطس ألقى بالذنب كله على اليهود (قال بيلاطس: «لقد فعلت ذلك بسبب عصيان اليهود وشدة

سخطهم»). عندئذٍ أصدر طيباريوس أمراً إلى والي المقاطعات الشرقية بمعاقبة سكان أورشليم والمدن المجاورة على الجريمة التي ارتكبوها، وطرد اليهود من فلسطين و «تشتيتهم ليصبحوا عبيداً عند مختلف الشعوب». ومن الواضح أن المشهد يعكس موقفاً عدائياً صريحاً من اليهود، وهو ما يمكن أن نقف عليه أيضاً في طائفة من المؤلفات المسيحية التي ظهرت في الزمن المعني؛ فقد جعلوا من طرد اليهود في عهد طيباريوس من روما، فعلاً على مستوى الإمبراطورية كلها. كما لجأ المؤلف هنا إلى محاكاة مبتكرة إذ أسقط أحداثاً متأخرة على زمن مبكر: ما وقع بعد سقوط انتفاضة فلسطين في الأعوام ٦٦- ٧٠م إذ بعد أن استولى تيطوس على أورشليم في العام ٧٠م، استعبد الأسرى اليهود كلهم. أما الإجراءات الصارمة التي اتخذها الإمبراطور هادريان بعد إخماد انتفاضة باركوبا، فقد نسبها المنحول إلى الإمبراطور طيباريوس الذي كان قد حكم قبل ذلك بزمن. بيد أنه لا تيطوس ولا هادريان يمكن أن يكونا معاصرين لزمن يسوع وبيلاطس، وعليه فإن توق الجماهير المسيحية المؤمنة للإيمان بانتصار المسيحية في التو واللحظة، على الرغم من الحقيقة التاريخية، هو الذي استدعى مثل هذه التباينات الزمنية إلى الحياة.

وغني عن البيان أن ظهور بيلاطس في قصر طيباريوس، ثم إعدامه وإعلانه ندمه وتوبته قبيل موته، كما جاء في هذا المنحول، ليس سوى اختلاف صرف. ضف إلى هذا أن الأمر لا يقتصر هنا على التناقض مع الوقائع التاريخية (في العام ٣٧م أقصى الإمبراطور كاليغولا بيلاطس عن منصبه بسبب كثرة شكاوى اليهود الذين اتهموه بالقسوة والبطش)، إنما يمتد ليطال التقليد المسيحي الشائع نفسه، فالمسيحيون أنفسهم تداولوا تقرير بيلاطس المزيف إلى الإمبراطور كلاوديوس حول إعدام يسوع. ويبدو أن من وضع منحول بيلاطس وطيباريوس لم يكن على علم بهذه الرواية أو أنه تجاهلها، فالرواية تقول، إن بيلاطس كان لا يزال على قيد الحياة في عهد كلاوديوس الذي اعتلى العرش بعد طيباريوس وكاليغولا. بيد أن كثيراً من المسيحيين كان يرى أن الأمر الأهم، هو أن العقاب الصارم قد طال بيلاطس بعيد صلب يسوع مباشرة[1].

وهناك موقف مشابه حيال الوقائع التاريخية يمكن أن نتعرف عليه في موقف تعاليم الرسول أدّاي (= فاديوس) السورية، تجاه الإمبراطور كلاوديوس. فعلى امتداد القرون كان هذا المنحول يحمل إضافات وتغييرات. وكان العمل نفسه قد كتب في أواخر القرن ٤م وأوائل

---

١- هناك رواية أخرى عن نهاية بيلاطس (كتبت باللغة اللاتينية)، تقول: لما علم هذا أن الإمبراطور حكم عليه بالموت، قتل نفسه بيده (الحكايات المنحولة.. ص ١٢١-١٢٤).

القرن ٥م، ولكن الروايات التي حملها عن شيوع المسيحية في إقليم اوسروين السوري (=إقليم الرها - م). ترقى إلى زمن مبكر أكثر. لقد دعي كلاوديوس في هذا المؤلف بلقب قيصر طيباروس، أي مساعد الإمبراطور طيباريوس، علماً أن عهد كاليغولا يفصل بين عهده وعهد طيباريوس. ولكي يُفعّل مؤلف المنحول كلاوديوس بصفته الحاكم الأعلى، أرسل طيباريوس إلى أسبانيا ليخمد الانتفاضة التي اشتعلت هناك. والحقيقة أنه كان ثمة انتفاضة جبارة هناك، بيد أنه لا يتوفر لنا أي معطيات توحي بأن الإمبراطور قد قاد القوات بنفسه لإخمادها (من المعروف أن تاسيت وسفيتونيوس قد دونا أعمال طيباريوس بالتفصيل): إنه لأمر غريب تماماً عن زمن سلالة يوليوس - كلاوديوس. وغني عن البيان أن مثل هذا الخلط بين إمبراطورين في إطار زمني واحد، ليس مجرد طريقة أدبية، أو اصطلاح أدبي كما ترى ي. ن ميشير سكايا. فقد سمح هذا الخلط بجعل كلاوديوس معاصراً لبطل رواية الرسول أدّاي الذي كان ينشط في إقليم أوسروين باسم يسوع. لقد اعتنقت بروتونيكا، زوجة كلاوديوس، الديانة المسيحية، وقامت برحلة حج إلى المقدسات المسيحية في فلسطين، وكأنها بذلك تقدمت على كل ما ارتبط في القصص المسيحية بما فعلته يلينا والدة قسطنطين: إننا أمام محاكاة للأحداث بل وللخرافات وإسقاطها على أزمنة أقدم. عداك عن هذا كله أن زوجة كلاوديوس الوارد اسمها في هذا المنحول، لا وجود لها أصلاً، وعلى أغلب الظن أن الاسم مجرد رمز، فهو يعني «الانتصار الأول»، أي الانتصار الأول الذي حققته المسيحية في العائلة الإمبراطورية. لقد شهدت بروتونيكا المعجزات، ولما عادت إلى روما روت لكلاوديوس كل شيء، بما في ذلك عن عدم إيمان اليهود. عندئذٍ آمر كلاوديوس بطرد اليهود من إيطاليا. وعلى هذا النحو يظهر كلاوديوس نصيراً للمسيحيين ضد اليهود.

والحقيقة أن اليهود طردوا من روما، وهذا ما أفاد به سفيتونيوس في سيرة كلاوديوس: «لقد طرد اليهود المهتمين دوماً بالمسيح، من روما». وربما كانت الصدامات بين اليهود والمسيحيين المقيمين في روما، هي السبب الذي دفع كلاوديوس إلى طردهم من روما. كما أشارت أعمال الرسل بدورها إلى واقعة طرد كلاوديوس لليهود، فقد كان منهم المسيحيان أكيلا وبريسكيلا اللذان جاءا إلى كورينثوس وساعدا هنا بولس، بل وثمة من اعتنق المسيحية على أيديهما (أعمال الرسل). إذن لم يتضمن الأمر الذي أصدره كلاوديوس أي رغبة للدفاع عن المسيحيين، بل من الواضح أن أذاه انسحب على اليهود كما على اليهود - المسيحيين على حد سواء. والحقيقة أن كلاوديوس أصدر إرادة حمى بها حقوق اليهود الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية، عندما اشتعلت هنا حركة شعبية مناهضة لهم. وما جرى في

الحالة التي بين يدينا، هو أن المنحول المسيحي قلب الواقع رأساً على عقب، فبدل دوافع قرارات كلاوديوس جاعلاً منه حامياً للمسيحيين، وسحب فاعلية تعليماته على إيطاليا كلها.

ولكن الشخصية الأكثر إشكالية لدى تقويم دوافع تصرفات أباطرة روما، كانت شخصية نيرون، الذي بقيت ذكريات تنكيله بالمسيحيين حاضرة في ذاكرتهم لزمن طويل، وبتلك الملاحقات عينها ارتبطت الخرافات التي شاعت عن هلاك بطرس وبولس. ولم تر الأجيال المسيحية المتأخرة في هلاك هذين الحبرين أي شكل من أشكال الهزيمة، حتى المؤقتة للمسيحية. فأعمال بولس اللاتينية ومثلها آلام بولس (كتب هذان العملان في القرن ٣م)، تقول إن مواعظه جعلت مقربين من نيرون يؤمنون بالمسيح، ثم آمن أيضاً الحراس الذين قادوا بولس إلى مكان الإعدام. وقبيل إعدامه التقى بولس نيرون وألقى على مسامعه موعظة. لكنّ الشيطان حرّض نيرون فأمر بإعدام بولس وكثرة كثيرة من المسيحيين. ويلفت الانتباه هنا إدخال «عدو خارجي» إلى الموضوع، هو الشيطان، الذي أخذ تدرجاً يغدو في تصور المسيحيين مصدراً للشر الذي يؤثر في أفعال الحكام المعادية للمسيحيين (يلفت الانتباه في هذا السياق أن مؤلف «آلام الرسول اندراوس»، الذي يرقى إلى زمن مبكر أكثر، يحمّل الوالي إيجيات نفسه مسؤولية مناهضته للرسول، ويلقى إيجيات العقاب على ذلك). ولكن إذا كان نيرون قد لاحق المسيحيين ونكل بهم، فإن شعب روما بدا كأنه يناهض الإمبراطور بحمية، إذ اقتحم القصر وطالبه بالكف عن ذلك فوراً. وغني عن البيان القول، أنه يصعب علينا كثيراً أن نصدق في واقع الحال، أن يسمح الحرس الإمبراطوري الذي كان لا يزال مخلصاً للإمبراطور، للحشود بمجرد الاقتراب من قصر نيرون، فما بالك باقتحامه. بيد أن المسيحيين أرادوا أن يؤمنوا بانتصار الدين الجديد حتى في زمن حكم فيه واحد من أكثر أباطرة روما بطشاً. وعلى أي حال، أعدم بولس، وآمن بالمسيح الحراس الذين نفذوا الإعدام. ولكن الرسول ما لبث أن بعث وجاء إلى قصر نيرون. فدب الذعر في قلب الإمبراطور وأمر بإطلاق سراح المقربين منه الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية، واصدر إرادة إمبراطورية بوقف ملاحقة المسيحيين، بمعنى آخر، لقد أقر نيرون نفسه بقوة هذه الديانة.

فمن البدهي أنه بعد الاعتراف الرسمي الذي نالته المسيحية في عهد قسطنطين، كان من المهم بالنسبة للمسيحيين وقادتهم ومنظريهم أن يبينوا أنه لا تناقض بين الإمبراطورية والمسيحية، وأن الأباطرة ساندوا المؤمنين منذ البداية وعاقبوا أعداءهم. ولكن الدوافع السياسية بدت غير كافية وحدها لشرح تعاطف أباطرة القرن ١م مع المسيحية، بخاصة أن طائفة من الروايات المنحولة كانت قد أنشئت قبل أن ترسخ المسيحية وجودها رسمياً في

الإمبراطورية. بل حتى الجو الخيالي الذي كان يحيط «باعتناق» الأباطرة للدين الجديد، يشير إلى أن ذلك الجو نفسه إنما نشأ في أوساط الشرائح السكانية المسيحية الدنيا تحت تأثير الحكايات السحرية الشفهية والفولكلور. وقد غدت هذه الخرافات كلها جزءاً لا يتجزأ من «التاريخ» المقدس للمسيحية الظافرة منذ اللحظة التي ولدت فيها، ومنذ ولادتها تلك كانت المسيحية مليئة بمعجزات يبدو أنه كان من الصعب على مؤلفي أسفار العهد الجديد تخيّلها.

ويعد التعامل بتصرف مع الشخصيات التاريخية الثانوية وإدخالها بحرية إلى أحداث مختلقة لا تتزامن مع الوجود الفعلي للشخصيات المعنية، يعد من السمات التي لا تتميز بها قصص الأباطرة فقط، بل يطبع بطابعه الجنس الأدبي المعني كله أيضاً. ففي فاتحة تعاليم أدّاي الرسول، يرد اسم سابين ابن يستراجي والي سوريا، وفينيقيا، وفلسطين (وتعد هذه الحالة حالة فريدة اقترن فيها اسم الوالي الروماني باسم والده). والحقيقة أنه ليس ثمة وجود لهذا الوالي في أي مصدر معروف لنا حتى الآن، إلا أن يوسف فلافيوس يذكر اسم سابين اليهودية في العام ٤ق.م. وربما استخدم مؤلفو المنحول اسم سابين هذا لأن حفظه في الشرق كان ممكناً. ففي عهده اشتعلت في اليهودية انتفاضة قوية نجحت في محاصرة سابين وقواته لزمن طويل، لكن والي سوريا فار سحق الانتفاضة بقسوة بالغة (العاديات اليهودية). لقد جعل استخدام اسم سابين للخرافة خلفية تاريخية معينة، مع أنه تحول فيها من قاض إلى وال. ودخلت المنحولات شخصيات أصولها أناس حقيقيون، وقد وضع هؤلاء كما الرسل، في ظروف من نسيج الخيال الصرف. ففي «آلام بولس الرسول» ثمة مسيحية تنتمي إلى «أرقى العائلات الارستقراطية»، تدعى بلافتيلا، التي حضرت لحظة إعدام الرسول وناولته منديلها، وبعد أن تم الإعدام عاد إليها المنديل بطريقة إعجازية. والحقيقة أن المرأة هي بومبونيا غريتسينا، زوجة آلّ بلافتيوس (ومن هنا اسم بلافتيلا، وهو اشتقاق معروف لأسماء النساء من اسم الأب أو الزوج في العهد الإمبراطوري). وكتب تاسيت في مدوناته التاريخية، يقول: إنهم اتهموها بممالأة العبادات الأجنبية، وكان العرف يقضي في مثل هذه الأحوال أن تحاكم المرأة أمام زوجها، فحاكمها وبرأ ساحتها. ولم يكن الدين الغريب في هذه الحالة، هو الدين المسيحي بالضرورة (لقد كان تاسيت على علم بوجود هذا الدين منذ ملاحقات نيرون)، ولكن الحكاية جعلت بلافتيلا مسيحية منذ البداية (وهذا أمر ممكن)، ثم نقلتها الخرافات الشعبية لتجعل منها نصيرة بولس وشاهدة على المعجزات التي ارتبطت به.

إذن حتى الأمثلة التي سقناها هنا ترسم لنا الاتجاه الذي سارت فيه في الوسط المسيحي، إعادة تقويم التاريخ السياسي، بل والتاريخ المقدس ومثلجتهما. فالرواية الشفهية

الأولى ملأت بالتدرج فراغات هذا التاريخ، مضيفة إليه تفاصيل جديدة تلبي مطالب المؤمنين. وربما كان الرواة قد آمنوا حقاً بما كانوا يروونه، فيتذكرون أحداثاً ويحرفون أخرى، ويضيفون بنات مخيلتهم إلى الرواية. وهكذا كانت الخرافات تكتسي تفاصيل مشوقة جميلة وتنتقل من راو إلى مستمع، ثم إلى كاتب.

ثم جرت معالجة مادة الروايات بعد ذلك في أثناء نسخها وإعادة نسخها المرة تلو المرة، وفي أثناء إنشاء حكايات جديدة، عندما كان المحرر أو المؤلف يبرز ما يتوافق ومقصده ونزوعه. وقد حظيت هذه الحكايات بشهرة عظيمة جعلتها تتخطى حدود «الأدب الشعبي». ففي القرن ٣م كتب الشاعر كوموديان عن سمعان الساحر والكلب الناطق، وفي المؤلف الذي كتبه الكاتب المسيحي أرنوبيوس، أضاف إلى قصة صراع بطرس ضد سمعان الساحر جزئية خيالية جديدة: يصعد سمعان إلى فوق في مركبة نارية، لكن كلمة واحدة نطق بها بطرس جعلت الساحر يهوي مع مركبته من السماء إلى الأرض (Didascalia apsotolorum, 24). ونحن أشرنا سابقاً إلى أن يوسفوس أقر بصحة رسالة يسوع التي كتبها في أورشليم، على الضد من الحقيقة التاريخية الثابتة، وقصص العهد الجديد المسهبة عن الأحداث التي ارتبطت بإقامة يسوع في هذه المدينة. ومن الطريف أن يوسفوس ترجم الرسالة المعنية، كما ترجم رسالة الأبجر إلى يسوع من اللغة السورية، مدعياً أنه عثر على الرسالتين في الأرشيفات. وبصرف النظر عن أن منحول تعاليم أدّاي يؤكد أن يسوع أعطى رداً شفهياً، وهو الأمر الأكثر توافقاً مع التقليد، إلا أن رسالة أنشئت ووضعت في أرشيف ما. وعلى هذا النحو لم تعد الإضافات إلى الناموس مجرد منحولات، إنما أخذت تدرج في «الكتاب المقدس»: إذا لم يكن من أجل المجامع الكنسية، فمن أجل جماهير المؤمنين. ولكن يوسفوس الذي دعى مؤلفه «تاريخاً»، وجد نفسه أمام حالة أكثر تعقيداً عندما كان عليه أن يكتب عن الأباطرة الذين حموا المسيحية. ففي قصة تقرير بيلاطس إلى طيباريوس، ورد فعل الإمبراطور عليه، كان على يوسفوس المؤرخ الكنسي المعاصر أن يفسر: لماذا لم يعتنق طيباريوس نفسه المسيحية وينشر الدين الجديد في أرجاء الإمبراطورية. لقد وثق يوسفوس بالحكاية الشائعة، إلا أنه كان على معرفة كافية بتقاليد المنطق القديم تمكنه من إدراك مثل هذا التناقض. فعرض روايته (التاريخ الكنسي): نقل طيباريوس تقرير بيلاطس إلى السينات، واقترح على أعضائه الاعتراف بالإله الجديد يسوع. ولكن السينات رفض الاقتراح بذريعة أنه لم يتسنّ له مناقشة الأمر قبل عرضه، لأنه حسب «القانون الذي اعتمد منذ القدم وتجذر، كان يحظر الاعتراف بأي إله للرومان إلا بموافقة السينات وبمرسوم صادر عنه». والحقيقة أننا لا نستطيع

أن نتصور أن السينات كان قادراً في عهد طيباريوس أن يقر أي شيء لا يريده الإمبراطور، الذي أدار في روما ملاحقات جماعية مستنداً إلى قانون تحريم «إهانة العظمة»، وفرض على الإمبراطورية كلها عبادة أغسطس. ولكن هذا كله لم يكن له أي أهمية، بل لم يعن شيئاً بالنسبة للمؤرخين المسيحيين، مع أن الأرشيفات السورية والرومانية كانت تحت تصرفهم في القرن ٤م، فما بالك بمؤلفات المؤرخين الوثنيين. ولتجاهل يوسفوس الوقائع الحقيقية دلالة قوية على أن التعليل الذي ساقه له بعض من أساس في التقاليد الرومانية القديمة: منذ العصر الجمهوري عرفت روما هيئة العشرة التي كانت تشرف على الشؤون الدينية في البلاد. وكان يمكن للسينات أن يحظر أي عبادة كانت (في زمن الجمهورية أيضاً)، بيد أن هذا الأمر تحول في العصر الإمبراطوري إلى الإمبراطور، إلا أن هذا لم ينجح في فرض سياسته الدينية: في العصر الإمبراطوري كان في روما من يعبد الإلهة إيزيس، كما بقي فيها اليهود حتى بعد صدور قرار طردهم منها. فقد كان سكان العاصمة، فما بالك بالإمبراطورية كلها، متنوعين تنوعاً إثنياً كبيراً، الأمر الذي جعل رصد العبادات الدينية أمراً مستحيلاً. لقد كان إدخال عبادات جديدة شأناً من شؤون الإمبراطور، إلا أن هذا الأخير لم يدخل العبادات الجديدة إلا نادراً: أمر هارديان على سبيل المثال، بتأليه انتينوي بعد مقتله، وكان هذا أثيراً لديه؛ ولكن هذه العبادة لم تلق انتشاراً يذكر. أما العبادة الوحيدة التي كانت على مستوى الدولة كلها، فهي عبادة الإمبراطور، التي بقيت قائمة حتى في عهد قسطنطين.

ويبيّن التفسير الذي ساقه يوسفوس عملية مراجعة الأحداث التاريخية التي بدأت في الأوساط المسيحية الدنيا، ثم انتقلت إلى مؤلفات المسيحيين المثقفين. ومن المعروف أن إنشاء الأحداث التاريخية استناداً إلى الحكايات والخرافات، كان من سمات كتابه التاريخ في العصر الإغريقي - الروماني، بيد أن ذلك انسحب أساساً على كتاب تاريخ عصور أزمنة ما قبل الكتابة، كما عند ليفيوس في قصص حكم الملوك الأوائل. ولكن عشية بدء الزمن الميلادي كانت قد نشأت في روما طريقة عقلانية لكتابة التاريخ (وفي اليونان قبل ذلك) اعتمدت على مؤلفات كثير من الكتّاب، والوثائق المكتوبة الأرشيفية منها أو المحفورة على لوحات حجرية في الأماكن العامة. وفي غالب الأحيان كان المؤرخون متحيزين في تأويل المصادر، ونادراً ما أدركوا كنهها. وهناك من المؤرخين الرومان من نقرأ عنده خرافات، وقصصاً عن معجزات وتنبؤات. ولكن هذه الخرافات كانت ترتبط عادة بالحالة السياسية ولا تغير من الأحداث الحقيقية، إنما تبدو كأنها تضفي عليها مزيداً من الوقار. ففي سيرة أغسطس على سبيل المثال، يروى لنا سفيتونيوس استناداً إلى مؤلف الكاتب المصري

اسكليبيدس «تأملات في الآلهة»، خرافة تقول، إن والدة أغسطس أمضت ليلة في معبد أبوللون، فحملت بابنها من الإله الذي جاءها في هيئة ثعبان. بيد أن هذه الخرافة لم تؤثر بأي حال على عرض سفيتونيوس للمشاهد الرئيسة في نشاط الإمبراطور، وهو ما تؤكد صحته مصادر موازية.

وتتمايز المنحولات ومعها ما زعمه على أساسها كتّاب مسيحيون مثل يوسيفوس، تمايزاً مبدئياً عن مؤلفات تاسيت أو سفيتونيوس. فهم لم يسهموا في ترسيخ الحالة السياسية، لأنهم لم يهتموا بالحقيقة التاريخية، لقد أنشأ هؤلاء «تاريخاً مقدساً» خاصاً بهم، وشيئاً فشيئاً تحولت قصصهم إلى واقعات راسخة: في أواخر القرن ٤م نقل يوحنا فم الذهب في «محادثة عن رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس»، لقاء بولس ونيرون على أنه حدث وقع فعلاً، وكذا الأمر بالنسبة لقصة اعتناق ساقي الإمبراطور المسيحية على يدي بولس.

وما يثير الاهتمام، هو أن الحكام الذين اعتنقوا المسيحية يظهرون حتى في المنحولات غير مرتبطين بموضوع أباطرة روما. ومن أقدم الروايات المماثلة (القرنان ٢-٣)، رواية ترتبط بشخصية تاريخية حقيقية، هو الأبجر حاكم أوسروين، الذي له حضور في تعاليم أدّاي، وكان الأبجر قد اعتنق المسيحية فور تلقيه كلمات (رسالة) يسوع. وفي قصص أخرى يعتنق الحكام المسيحية بعد أن يصدروا أوامر بإعدام الرسل: لا يتحمل هؤلاء تداعيات العقاب، وهاذ ما وقع لإيجيات في آلام الرسول أندراوس، وتحت تأثير المعجزة: ظهور الضحية عائداً من بين الأموات، يتوب هؤلاء ويندمون ثم يتوسلون المعمودية. وحسب أعمال توما الرسول، أن الملك الهندي ماسداي (اسم مختلق) اعتنق المسيحية بعد مقتل توما، إذ صنع الرماد الذي آخذ من قبر الرسول معجزة: شفى ابنه من العفريت الذي سكنه. أما في النص الإغريقي لأعمال متى الرسول، فإن ملك بلاد آكلي البشر (!)، الذي كان يطارد الرسول بتحريض من العفريت، رأى بأم عينه متّى القتيل واقفاً على المياه يسنده من الجانبين شابان مشرقان، والبحر صار صافياً شفافاً وانبثق منه صليب. عندئذٍ اندفع الملك لاهثاً إلى الأساقفة بطلب الصفح وقبوله مسيحياً. ثم ظهر متّى نفسه للملك وأمره أن يتخذ اسمه اسماً له. وبعد ذلك أصدر الملك أمراً بتحطيم الأوثان كلها، وتحول في آخر حياته إلى أسقف. ومن الواضح من غير شك أن هذا المنحول قد تجاوز أطر التاريخ، بل أطر التاريخ المزعوم أيضاً، لأنه إذا كان ثمة تقليد مسيحي راسخ عن وصول توما إلى الهند، فإن أي تقليد آخر سوى هذا المنحول لم يشر إلى وصول متى إلى هناك. ولذلك أرسلته المخيلة الشعبية إلى تلك البلاد السحرية، بعد أن اقتبست معجزات

الحكايات الأخرى ولونتها وزخرفتها. وما رأى المسيحيون فيه إفراطاً في أعمال بولس وتقلا، صار مع الزمن إلى معيار.

لقد وضعت مثل هذه الحكايات على امتداد الطور الأخير من العصر القديم، ولم تعز في أثناء ذلك ملاحقات الملوك للمسيحيين إلى دوافع ذاتية لدى هؤلاء، إنما إلى تأثير قوى الشر عليهم. وفي المنحولات بات من المستحيل على أي قوة أن تواجه دعاة المسيحية. ضف إلى هذا أن مثل هذه الحتمية في اعتناق الحكام المسيحية أو حمايتها، خاصة عندما يجري الحديث عن أباطرة القرن الميلادي الأول، يعد مؤشراً على أن ما يشبه الإيديولوجيا «القيصرية» كانت قد نشأت في الأوساط الشعبية التي كانت قد تحولت منذ زمن، من مواطنين إلى رعايا: حسب تصورهم أنه كان ينبغي على كل إمبراطور أن يتحول في نهاية الأمر إلى مسيحي غيور يدافع عن الدين بحميّة.

لقد عبرت إعادة النظر في التاريخ و «تغييره» في الأدب الشعبي المنحول طريقاً طويلة على امتداد القرون الأولى لوجود الدين الجديد. فالروايات المتأخرة استغنت تماماً عن الاعتماد على أحداث حقيقية أو ممكنة، بما في ذلك الأحداث التي وصفتها الأسفار المقدسة في كتاب العهد الجديد. فقد تحايث فيها الإيمان بتعاليم يسوع المسيح والإيمان بوجود الحيوانات الناطقة من غير أن يتقاطعا في وعي جماهير المؤمنين. وعليه ليس عبثاً أن نبذ قادة الكنيسة مثل هذه الكتابات، بل هناك بعض من «التاريخ الكنسي» الذي كتبه يوسفوس القيصري رفض أيضاً. ولكن شهرة الأعمال المنحولة لم تتراجع مع انقضاء القرون، وهذا ما تؤكده كثرة المخطوطات القرسطوية. ومع أن الأعمال المنحولة قد نبذت على وجه العموم بصفتها مصادر إيمان ديني، إلا أن مشاهد معينة منها دخلت مؤلفات الكتاب والدعاة المسيحيين. فصار التاريخ عملياً، أسطورة تحكي اعتناق الشعوب والحكام للمسيحية بغمضة عين، وظهور المعجزات المستحيلة من غير انقطاع: وبقدر ما تكون هذه مغرقة في الخيال، بقدر ما يكون تأثيرها فاعلاً في أوهام المؤمنين.